المبحث الخامس
الدروس العسكرية

١ ـ أهمية معرفة أرض المعركة (تحليل ساحة الحركات):

يقول ف.ر/ سالم العلي: «تبعد المدينة المنورة عن مكة المكرمة مركز تجمع المشركين بحدود (٥٥٠كم)، ويربط المدينة المنورة بمكة الطريق الساحلي الذي يمر من منطقة ينبع وهذا هو الطريق الوحيد المُعَبَّد الذي تسلكه القوافل التجارية في طريقها إلى الشام، ويصلح للتنقل في جميع مواسم السنة، عدا في زمن هطول الأمطار.

وكانت وسائط النقل المستخدمة آنذاك الجمال والدواب؛ ولهذا لا يمكن لأي جيش أن يتحشد قرب المدينة لغرض مهاجمة المسلمين بين ليلة وضحاها، حيث لابد أن يقطع المسافة بين مكة والمدينة في عدة أيام؛ ولهذا سيكون تحرك جيش قريش من مكة إلى المدينة معلومًا لدى المسلمين قبل وصوله إلى المدينة، أي من الصعب جدًّا مباغتة المسلمين في عقر دراهم، كما كان يتوقع أبو سفيان.

تقع المدينة المنورة في منطقة تكثر فيها الأراضي البركانية وتحيط بها العوارض الأرضية المهمة تتخللها القنوات التي تسقي بساتين النخيل والحقول الزراعية المختلفة المحيطة بالمدينة المنورة والتي تعود أكثرها إلى ملكية المسلمين، وأهم العوارض المهمة في المنطقة هي:

أ ـ عارضة جبل أُحد: يقع هذا الجبل شمال شرق المدينة ويبعد عنها بمسافة ٤ كم ويمتد هذا الجبل من الشرق إلى الغرب ويبلغ طوله ٦ كم، وأقصى ارتفاعه (١٠٠٠) ألف قدم، وتكثر فيه القمم الكاذبة والتضاريس الأرضية الحادة والطنوف المختلفة الارتفاع والوديان، وتنتشر فيها بين طنوفه حفر تتجمع فيها مياه الأمطار تُسمى «المهاريس».

وفي الجزء الغربي من أحد يوجد طنف كبير يهبط بانحدار شديد نحو السهل في «وادي قناة»، كما يوجد إلى يمين هذا الطنف واد شديد الانحدار، وسفوح أحد الغربية شديدة الانحدار ويصعب تسلقها من قبل الخيل والمشاة.

وسُمي أحدٌ أحدًا لتوحده من بين تلك الجبال في المنطقة، وفي الصحيح جاء الحديث التالي «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**» [سبق تخريجه]، وبالحقيقة يشكل هذا الجبل عارضة تعبوية مهمة في المنطقة تصلح للرصد والاستطلاع ولغرض الدفاع والحماية.

ب ـ الوديان والقنوات: هناك العديد من الوديان والقنوات تقطع ساحة المعركة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب تجري فيها مياه الآبار والينابيع يُستفاد منها لسقي بساتين النخيل وزروع المسلمين في المدينة.

أهمها «وادي قناة» الذي يصب في منطقة «زغابة» ويمر من السفوح الغربية لجبل أُحد وبمحاذاة الحافة الشرقية «ربوة عينين»، وعلى ضفاف الوادي دارت معركة غزوة أُحد، واتخذت فيه الجيوش معسكراتها.

وهناك «وادي بطحان» يمر من غرب المدينة مباشرة و«وادي العقيق» الذي يمر من غرب «حرة الوبرة» ويلتقي مع «وادي قناة»، و«وادي بطحان» قرب «زغابة»، لا تشكل هذه الوديان والقنوات أي عائق تجاه الجيوش المتحاربة، وهي مصدر جيد للماء.

ج ـ الأراضي الحيوية: هناك بعض العوارض الأرضية المهمة في منطقة المعركة التي قد يصلح البعض منها أن يدعى بالأرض الحيوية منها جبل «سلع» الذي يقع شمال غرب المدينة، و«الشيخان» [تلان صغيران في ضواحي المدينة]، الذي يقع شمال المدينة بحوالي (٥ و١) كم، وهناك جبل «ربوة عينين» الذي يقع شمال المدينة وعلى الضفة الغربية لوادي قناة، ولهذا الجبل أهمية قصوى في غزوة أُحد.

ويبلغ ارتفاعه (١٥م) تقريبًا، وطوله (٥٠٠ م)، وهو على بُعد قليل من قبور شهداء أُحد وضريح سيدنا الحمزة ﷺ، وقد اندرست معظم معالم هذا الجبل نتيجة كثرة ما شيد عليه من الأبنية القديمة، وكذلك يصعب الاهتداء إلى «الشيخان».

د ـ البساتين والزروع: تكثر بساتين النخيل في أطراف المدينة المنورة والحقول الزراعية التي تعود أغلبها للمسلمين لكثرة توفر الماء في المنطقة، وهي تصلح للتعسكر والاختفاء وكعلف جيد للحيوانات، وفي تلك المزارع ترك المشركون إبلهم وخيولهم ترعى حين وصلوا إلى المدينة قبل بدء المعركة لغرض استفزاز المسلمين وهدر ممتلكاتهم؛ مما أذكى حماس المسلمين للخروج من المدينة وقتالهم.

هـ ـ الأراضي البركانية: تحيط ببساتين النخيل والزروع في أطراف المدينة مناطق مملوءة بالصخور البركانية الحادة التي لا تساعد على سير الخيل والجمال؛ لأنها تؤذي حوافر الخيل وخفوف الجمال، ولكنها تنعدم وتتلاشى قرب ضفاف وادي قناة.

و ـ مصادر الماء: الماء متوفر في الوديان والقنوات والينابيع المحيطة بالمدينة، كما أنه متوفر في «المهاريس» الكائنة في ما بين قمم أُحد والذي استخدمه المسلمون لإغاثة الجرحى والعطشى، والماء متوفر بشكل غزير في وادي قناة، ولكنه لم يسبب أي عائق أو مانع يُذكر لكلا الطرفين المتحاربين.

ز ـ طُرُق المواصلات: الطريق التجاري الذي يصل مكة بالمدينة ثم إلى الشام يمر من غرب المدينة، وهذا الطريق التجاري هو الذي سلكته قريش في مسيرة الاقتراب نحو الهدف، وهناك طريق آخر يتفرع من هذا الطريق قبل الوصول إلى المدينة ويتجه نحو الشرق باتجاه نجد وإلى العراق والشام، والذي سلكه صفوان بن أمية في قافلته التي أسرها زيد بن حارثة ﷺ، وهو أصعب من الطريق الساحلي ويحتاج إلى أدلاء.

ح ـ **ساحة المعركة (تضاريس ساحة المعركة)**: أما ساحة المعركة الفعلية التي جرى فيها القتال فهي تقع حول جبل الرماة، وهي منبسطة في أقسامها الجنوبية، وتبدأ بالارتفاع بعد وادي قناة باتجاه سفوح أُحد الغربية، وتكثر في المنطقة الأراضي السبخة (الأرض الكثيرة الملوحة)، وأهم عوارض ساحة جبل أُحد: وادي قناة، جبل الرماة، الشيخان.

إن الواقف على جبل الرماة ويجول بنظره على امتداد ساحة المعركة التي أمامه لا يكاد يصدق أن أهم معركة تاريخية في صدر الإسلام قد دارت في هذا الميدان؛ وذلك لصغر ساحة المعركة، فهي أوسع بقليل من ساحة كرة القدم.

وهذا ناتج طبعًا عن نوع وطبيعة وقدرات الأسلحة المستخدمة آنذاك وهي السيف والرمح والقوس والخنجر والفأس، وبالطبع أن المديات المؤثرة لهذه الأسلحة هي أقصر بكثير وبلا شك من مديات الأسلحة المستخدمة في الحروب التي تعاقبت إلى يومنا هذا». [معركة أُحد للعلي ١٧-٢١].

ويقول د/ الرشيد: «يُعَدُّ اختيار المكان المناسب في المعركة ذا أثرٍ كبيرٍ على نتائجها، وقد ذكر أهل الخبرة والدِّرَايَةِ بالحرب، أنه ينبغي لقائد الجيش، أن يجتهدَ في حمايةِ ظهور جنده من أعدائه.

فقد ذكر الماوردي رحمه الله أن من واجبات القائد لحماية جنده أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم، وذلك أن يكونوا أَوْطَأَ الأرضِ مكانًا، وأكثرها مرعىً وماءً، وأحرسها أطرافًا وأَكْنَافًا وأطرافًا؛ ليكون أعون لهم على المنازلة، وأقوى لهم على المرابطة.

ويذكر الأنصاري أيضًا أنه يجب على قائد الجيش (أن يسند ظهور أصحابه إلى الجبال أو التِّلال أو الأنهار، وما أشبه ذلك مما يؤمِّنُ سرعةَ التَّطَرُّقِ والكمن والبيات من العدو... وذلك أن العدو إذا أتى مواجهةً وَاجَهَهُ أهل العسكر باللِّقاء بالسِّلاح، ودافعوه بما تصل إليه طاقتهم من الدفاع، وأما إذا أتى من جهة ظهر العسكر، فإن لم يكن هناك ما يحفظ ظهره ربما هجم العدو على العسكر على حين غفلةٍ منه».
[تفريج الكروب في تدبير الحروب ص٤٣].

وبذلك تحل الكارثة بالجند.

وقد كان الرسول ﷺ يحرص على اختيار المكان المناسب الذي ينزل فيه جنده، ففي غزوة أُحد عرف ﷺ بفراسته أهمية جبل أُحد واستفاد منه في حماية ظهور أصحابه من الخلف.

ومما يدل على أهمية هذا الموقع أن كفة المسلمين كانت راجحةً حينما كانوا مسيطرين على الجبل، وعندما ترك الرماة مواقعهم واحتلها المشركون، رجحت كفَّتُهم، وهذا ما أكده النبي ﷺ على الرُّمَاةِ، بقوله: «**لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا**».
[البخاري في المغازي (٤٠٤٣)]. [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٢٤-٤٢٥].

ويقول أ/ عبَّاد: «أي قائد يدرس خطة النبي ﷺ يجدها خطة حكيمة ودقيقة جدًّا تتجلى فيها عبقريته العسكرية ﷺ، فقد احتل أفضل موضع في ميدان المعركة مع أنه نزل فيه بعد العدو، فقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى مؤخرته وظهره بوضع الرماة على الجبل، واختار لمعسكره موضعًا مرتفعًا يحتمي به إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين، ولا يلتجئ إلى الفرار فيتعرض للوقوع في قبضة الأعداء والأسر، وأيضًا يستطيع أن يلحق خسائر فادحة بالأعداء إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه، وكذلك ألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم أن يحصلوا على شيء من النصر إن كانت لهم الغلبة، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، وبذلك يعطي النبي ﷺ درسًا لكل قائد في كيفية الاستخدام الجيد للأرض، والاستفادة مما قد توفره بعض التضاريس من مميزات تكتيكية، وذلك يعد عاملًا رئيسًا في كسب المعركة». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٧١].

ويقول د/ الجريوي: «قال أحد كبار القادة العسكريين في إحدى الدول الإسلامية، والذي جاء بنفسه حتى وقف على موقع المعركة، ثم رأى وتفكر وتمعن ونظر، ثم قال: يستحيل أن يستطيع قائد عسكري أن يختار مثل هذا الموقع، ويتميز الموقع الذي اختاره الرسول ﷺ لجيشة بميزة عظيمة ونادرة، حيث يسمح لجيشه في حالة انتصاره بمطاردة عدوه، وفي الوقت نفسه لو حصل العكس وحصلت الهزيمة فسوف تكون محدودة ومقصورة، لا يستطيع العدو معها القضاء على الجيش قضاءً نهائيًّا، حيث لن يكون المجال أمامه مفتوحًا للمطاردة، بل يستطيع الجيش الإسلامي في حالة الهزيمة أن يخرج منتصرًا!! إذ إن صعودهم في الجبل يمكنهم من عدوهم، ولا يمكِّن عدوهم منهم، وقد برهنت الحوادث أن اختيار هذا المكان هو الذي جنَّب الجيش الإسلامي خطر الفناء الكامل».

[السياسة العسكرية في غزوة أحد للجريوي ص ٦٩-٧٠].

٢ ـ أهمية عنصر المفاجأة [(١)]:

يقول د/ أبو فارس: «وفي غزوة أحد اختار رسول الله ﷺ موقعًا إستراتيجيًّا ممتازًا إذا جعل جبل أحد خلف جيشه ووضع عليه خمسين راميًا ليحمي ظهور المسلمين، ونتيجة لهذه المفاجأة في الموقع الأقوى كسب رسول الله ﷺ الجولة الأولى في المعركة، إلا أن المسلمين لم يجنوا ثمار الانتصار في النهاية لعدم التزام الرماة بالبقاء على الجبل، فنزلوا وكشفوا بنزولهم ظهور المسلمين فحرموا المسلمين من النصر».

[المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ١٧٣].

(١) سبق تفصيله في الدروس العسكرية من المرحلة الثانية من غزوة بدر الكبرى.

٣ ـ خطط الطرفين وانتخاب أرض المعركة [١]:

(أ) **المشركون**: كانت خطة أبي سفيان عندما شرع بالحركة بجيشه الجرار من مكة إلى المدينة هي مفاجأة المسلمين في عقر دارهم قبل استعدادهم للقتال، ولكن وصول رسالة العباس ﷺ إلى النبي ﷺ والحصول على المعلومات عن تحركات جيش المشركين من مصادره الأخرى، أفقد أبو سفيان عنصر المباغتة، وبصفته قائد محنك أدرك عن وعي وخبرة أن قتال المدن سيكون مريرًا وقاسيًا وسيسبب خسائر كبيرة في جيشه، وعندما وصل بجيشه إلى جنوب المدينة تابع سيره نحو الشمال؛ لأن الخيول والجِمال كانت تتعثر في سهول المدينة الجنوبية لكثرة ما فيها من أحجار بركانية حادة الأطراف يصعب على الخيل والجمال التنقل عليها، وهذا مما حدا بأبي سفيان لأن يعسكر في السبخة من وادي قناة غرب أُحد.

ولم يكن هدف المشركين ـ كما قلنا ـ محاربة المسلمين في العراء بل مهاجمتهم في مدينتهم واحتلالها عن طريق مساعدة المنافقين واليهود ومَنْ والاهم، وعندما عسكر أبو سفيان في وادي قناة لم يتوقع مطلقًا خروج المسلمين إليه؛ لأنه يعلم أن عددهم قليل جدًّا مقارنة مع جيشه، وكان يتوقع أن المسلمين سوف يتحصنون في منازلهم وعدم مغادرتهم المدينة.

ولقد سبَّب خروج المسلمين إلى العراء دهشة واستغراب أبي سفيان وجنوده، ومع ذلك كان ينتظر مساعدة المنافقين واليهود، وكما نعلم أن هاتين الطائفتين انسحبتا قبل بدء المعركة، ولم يبق أمام المشركين إلا سبعمائة مسلم فقط.

وتحرك المشركون إلى الأمام من معسكرهم في السبخة لاتخاذ تشكيل المعركة بالقرب من ربوة «عينين»، وبالرغم من أن أبا سفيان كان مجبرًا على خوض المعركة تحت ظروف غير مواتية بالنسبة له، ولكن ترتيب قواته كان سليمًا ووفق أحدث أساليب تشكيل المعركة آنذاك، فقد قسَّم جيشه إلى قوة رئيسة من المشاة في الوسط بنظام الصفوف وبقيادة صفوان بن أمية، وهذه أول مرة يُقاتِل فيها جيش مكة بنظام الصفوف، حيث كانوا يقاتلون سابقًا بأسلوب الجاهلية «الكَرِّ والفَرِّ»، وقد تعلموا ذلك من المسلمين في غزوة بدر، واتخذ أجنحة متحركة من الفرسان لغرض المناورة ضد مجنبات المسلمين ومؤخرتهم، حيث تمركز خالد بن الوليد مع سرية خيالة قوامها (١٠٠) مائة فارس على الجناح الأيمن لجيش المشركين، وعكرمة بن أبي جهل مع سرية خيالة قوامها (١٠٠) مائة فارس على الجناح الأيسر، وعين عمرو بن العاص مسؤولًا عن جميع الخيالة لغرض التنسيق والتعاون بين الجناحين، ووضع أبو سفيان مائة نبال على رأس الصف الأمامي من أجل الاشتباك الأول، وتمركز القائد العام أبو سفيان في القلب، وهذه أول مرة يُقاتِل جيشُ المشركين تحت قيادة موحدة، فقد كانت القيادة سابقًا مُتنازع عليها بين زعماء القبائل.

---

(١) معركة أُحد للفريق الركن سالم العلي ٣٠-٣٤.

وكان يحمل لواء قريش في مقدمة الصفوف طلحة بن أبي طلحة، وهكذا اتخذ المشركون تشكيل المعركة وظهرهم إلى المدينة ويواجهون جبل أُحد، ومنحت الأرض المفتوحة لأبي سفيان حرية المناورة ضد أجنحة المسلمين بالفرسان.

(ب) **المسلمون**: كانت خطة القائد الرسول القائد ﷺ في بادئ الأمر هي التحصن في المدينة ومنازلة المشركين فيها، ولكنه خرج إلى العراء بناء على رأي الأكثرية، وكان خروجه مفاجأة لأبي سفيان، وفي أرض المعركة اتخذ الرسول ﷺ تشكيل المعركة كما يلي:

أ- عسكر الرسول ﷺ في سفوح أُحد والطنف المطل على وادي قناة مستقبلًا بجيشه المدينة وجاعلًا ظهره إلي جبل أُحد، وهكذا أصبح جيش العدو حاجزًا بين جيش المسلمين وبين المدينة التي لم يبق فيها من الرجال إلا المنافقون والعاجزون عن القتال من أمثال شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت ﷺ والنساء والأطفال.

ب - في صباح يوم السبت ١٥ شوال يوم أُحد قام النبي ﷺ بدراسة أرض المعركة لغرض اتخاذ تشكيل المعركة، وخطب خطبته المشهورة يحثهم على الجهاد في سبيل الله، ويخبرهم أن خطتهم الحربية اليوم هي خطتهم في يوم بدر تمامًا، فعليهم أن يشكلوا الصفوف المتكاملة المتراصة...

وتوقع ﷺ ردود فعل العدو وخاصة الخيالة، وشخص الأرض الحيوية في ساحة المعركة حيث أشار بإصبعه نحو الجنوب قائلًا: «إن أراد خالد بن الوليد مهاجمتنا فسيأتينا من هذه الناحية؛ لأن هذا السهل يسهل حركة جياده»؛ ولأجل منع خالد بن الوليد من الالتفاف على جناح المسلمين الأيسر يجب التمسك بالأرض الحيوية ربوة عينين «جبل الرماة» وأن احتلاله بقوة جيدة يمنع حركة الالتفاف للخيالة؛ ولذا وضع على جبل الرماة خمسين من رماة النبل الماهرين تحت قيادة عبد الله بن جبير ﷺ، وأصدر أوامره المشددة إليهم بأن لا يتركوا مواقعهم في جبل الرماة مهما كانت الظروف والتطورات قائلًا لهم: «**احْمُوا لَنَا ظُهُورَنَا، لا يَأْتُونَا مِنْ خَلفِنَا، وَارْشُقُوا خَيْلَهُمْ بِالنَّبْلِ، فَإِنَّ الخَيْلَ لا تُقْدِمُ عَلَى النَّبْلِ، إِنَّا لَا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا ثَبَتُّمْ فِي مَكَانِكُمْ**»، وقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَيْهِمْ!**».

ج - وبعد أن اطمأن رسول الله ﷺ من تمركز فصيلة الرماة في جبل الرماة، أخذ يهيئ الصفوف كصفوف الصلاة ويوزع المسؤوليات على القادة، وأكد على رص الصفوف والمحافظة على ذلك؛ لأن هذا سيؤدي إلى النصر الأكيد لكثرة غلبة المشركين عليهم، وبذا تم تنظيم المسلمين في تشكيل المعركة بشكل متلاحم تبلغ جبهته ألف ياردة، وأسند جناحه الأيسر على سفوح جبل الرماة وجناحه الأيمن على أُحد «طنوف جبل أحد»، وكانت ميمنة المسلمين مؤمَّنة تمامًا بسبب وعورة الأرض، ولكن

ميسرتهم يسهل الالتفاف عليها من شرق جبل الرماة، وفي هذا أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف].

د - اتخذ النبي ﷺ موقع قيادته مع الجناح الأيسر لجيشه، كما وضع الأشداء من الرجال في طليعة الصفوف وعلى رأسهم الحمزة وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وأبو دجانة رضي الله عنهم.

وأصدر أوامره بألا يقاتل أحد إلا بأمر منه، وأخذ يشجع أصحابه ويحثهم على الصبر في القتال، وقد أوكل الرسول ﷺ قيادة كتيبة من الجيش بقيادة الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما، وخصص لها واجب الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد، ووضعهم خلف الرماة في جبل الرماة لغرض مساندتهم في صد أي هجوم يقوم به الفرسان في أول المعركة، كقوة هجوم مقابل.

وقد وقفت (١٤) أربعة عشرة امرأة وراء المسلمين في القتال لغرض رفع المعنويات، ولمداواة الجرحى، وإسقاء العطشى، والاشتراك في القتال عند الحاجة.

هـ - لقد كان انفتاح المسلمين في تشكيل المعركة يهدف إلى الدخول في المعركة بجبهة ضيقة متراصة مسندة الجناحين تمامًا، وقد منح هذا الترتيب المسلمين ميزة استثمار مصادر قوتهم، وهي الشجاعة والمهارة في القتال وفن استخدام الأرض والسلاح وتحديد مناورة خياله المشركين الذين يشكلون ذراع المناورة المتحرك الذي يفقده المسلمون». [معركة أُحد للعلي ٣٠-٣٤].

٤ ـ لماذا لم يختر أبو سفيان الموقع الإستراتيجي من أرض المعركة؟:

يقول د/ أبو خليل: «سؤال يعرض لنا قبل البدء بأحداث أُحُد:

لماذا لم يختر أبو سفيان، وبالتالي قريش، الموقع الإستراتيجي من أرض المعركة، على الرغم من وصولهم إلى موقع أُحد قبل المسلمين؟!

إجابة من الإجابات الخمس التالية كافية جوابًا لهذا السؤال، وقد تكون مجتمعة الجواب الكامل:

(١) ضيق الأفق العسكري عند أبي سفيان وقريش، فالعرب في الجاهلية، لم يخوضوا معارك كبيرة منظمة، فيها خطط حربية مدروسة.

(٢) ولعل قريشًا ما أرادت حصر نفسها في مساحة قليلة صغيرة ضيِّقة، وهم ثلاثة آلاف مع خيلهم وإبلهم ونسائهم.

(٣) ولعل القرشيين لم يُقدِّروا سير الأحداث القادمة، ولا أين من الممكن أن يتمركز رسول الله ﷺ، وما ظنوا أنه لن يمرَّ عليهم ليتجاوزهم إلى شِعْبٍ معين، فيجعل ظهره إلى الجبل، ووجهه قُبَالة المدينة المنورة.

(٤) ولعلهم فكَّروا بالفرار عند الحاجة، بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة المنكرة ببدر، فهم في منبسط من الأرض متصل بطريق القوافل العام الموصل إلى مكة.

(٥) لقد فرض رسول الله ﷺ موقع المعركة وميدانها على القرشيين، فاختار المكان الأنسب الذي يلائم قلة عدد جنده، مما يعطيه الفعالية، ويشل حركة جيش المشركين، وبخاصة فرسانهم، وتمَّ له ﷺ ذلك كما أراده». [غزوة أُحد لأبي خليل ٣٨-٣٩].

٥ ـ أهمية معرفة القيادة للنقاط الحرجة في سير المعركة:

يقول الشيخ عرجون: «ولا بد لنا من وقفة أمام هذه الوصايا الحكيمة الصريحة الحازمة القوية البالغة في قوتها مبلغ أعمق ما يمكن أن يوصي به قائدٌ جندَه وهو على نفس المعركة لكتيبة من جيشه، عقد بنواصيها النصر المؤزر إن هي وعت الوصية وصبرت وصابرت، ولم تهتز قناتها، أو الهزيمة المدمرة إن هي تخلخلت في موقفها فلم تقو على تحمل مرارة الصبر والمصابرة واستزلهم الشيطان بتزيين الدنيا لهم.

تلك هي طائفة الرماة وكتيبة حامية جيش المسلمين أن يؤتى من خلفه في هجوم خاطف يُفقده نظامه العسكري، ويفسد عليه خطته للمعركة، ويتبدد تدبيره الذي أحكم وضعه على أساس وضع الرماة وموقفهم في تنفيذ ما كُلِّفوه من الثبات في أماكنهم.

ونحن وإن كنا لسنا من أهل العلم الحربي، والسياسة العسكرية، ولا من ذوي الخبرة بخصائص المواقف الحربية وما ينبغي فيها من تحركات الجيوش وكتائب المحاربين، لكنا نقرأ ونحاول أن نفهم ما نقرأ، وقد نستعين بمباحثة أهل الدربة من فنيي الحرب ورسومها العسكرية.

وللحرب كتب ووثائق تتحدث بإفاضة عن الوقائع الحربية في القديم والحديث، والمتحدثون فيها من المتخصصين في فن القيادات الحربية الذين يرسمون خطط المعارك الحربية على مقتضى طبيعة الحياة والأرض والأسلحة والقوة البشرية وما وصلت أو ما يجب أن تصل إليه من تدريب وخبرة، ومعرفة موقف الأعداء من هذا كله وتقدير ما يجري من خداع في الخطط المعلنة وغير المعلنة..

وقد استفدنا مما قرأناه في هذه الكتب والوثائق التي سمحت بنشرها المواقف التاريخية أن سلاح الرمي ـ وهو في الاصطلاح الحديث للحروب سلاح الطيران في عمومه، وسلاح القاذفات في خصوصه ـ هو أهم أسلحة الحرب؛ لأن هذا السلاح قد يوجه ضربة قاضية تحت ستار خدعة مدبرة إلى جيش أعدائه فيشل بها حركته، بل قد يقضي عليه وعلى كثير من أسلحته الزاحفة، سواء أكانت هجومية أو دفاعية وتحل الهزيمة هنا، وتخفق ألوية النصر هناك..

ومن ثَمَّ كانت الأهمية البالغة للوصية التي خص بها النبي ﷺ ـ بوصفه قائدًا عسكريًّا ـ كتيبةَ الرماة في غزوة أُحد؛ لأن جو المعركة في هذه الغزوة كان يتطلب إعداد سلاح الرمي، وإعداد كتيبته من

المتخصصين في استعمال هذا السلاح، كما كان جو المعركة يتطلب التوجه إلى كتيبة سلاح الرمي بأوامر قياديَّة خاصة بالرماة، تُوجه إليهم في صور وأساليب منذرة محذِّرة.

فالنبي ﷺ إذا تحدَّث إلى فرقة الرماة ـ بعد أن وضعهم في مكان الحماية لظهر الجيش ـ إنما يتحدث بهذه الأوامر والوصايا الحكيمة الحازمة الصارمة إليهم بوصفه القائد الأعظم للمعركة.

وقد أعلمهم في وصاياه بصراحة لا تحتمل التأويل بما لا يكون للعلم الموثَّق والمعرفة المؤكدة سبيل وراء ما أوصاهم به، وحذَّرهم من مغبة مخالفته، مُلقيًا على استجابتهم أو عدم استجابتهم عبء المعركة، ومُحمِّلًا لهم نتائجها في النصر أو الهزيمة.

ولم يترك ﷺ تعبيرًا في أسلوب القيادات الحربية المحذِّرة إلا حدَّثهم به في أوامره ووصاياه، وأراهم منافع المحافظة على هذه الأوامر والوصايا، وبيَّن لهم مضار ووخامة التهاون والغفلة عنها، وعرَّفهم مكانتهم ووزنهم الخطير في موقفهم لحماية ظهر الجيش؛ لأن الجيش الذي تحمي ظهره قوة يثق بها، ويطمئن إلى يقظتها وحرصها عليه يجعل ثقله كله في حملته على بؤرة جيش أعدائه.

عبارات التحذير للرماة كانت واضحة في قوتها وصرامتها: ومن أجل هذه الأهمية العظمى لهذه الحماية أبرزها القائد الأعظم محمد ﷺ في أسلوب القيادة الحازمة والأوامر الحربية الصارمة، وصاغها في عبارات تكاد تكون معجزة في معانيها ومراميها، وإن كانت قد جاءت في سهولة بيانها وسماحة تعبيرها من قبيل الأحاديث المرسلة في معالم الحياة، خالية من الغموض والتعقيد حتى لا تترك مجالًا للتأويل والتحريف، ولو لم يكن فيها إلا قوله ﷺ: «**إِنَّا لَا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا ثَبَتُّمْ فِي مَكَانِكُمْ**»، وقوله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَيْهِمْ!**» لكفى لمن كان له قلب لا تستهويه الدنيا بزخارفها.

هذه الوصايا والأوامر نضعها بين يدي أهل الاختصاص من قادة الحروب وساسة المعارك؛ لأنهم هم أهلها وأحق الباحثين بالنظر فيها وبيان مقاصدها وأهدافها، حتى يتبين من دراستها فنيًّا مدى مبلغ رسول الله ﷺ من العلم في سياسة معاركه، فوق إنافته على المستوى القيادي في معرفة أقدار فئات الكتائب المحاربة وفرق الجيش، والأسلحة التي تتجهز بها كل فرقة في حدود اختصاصها في كل موقعة على مقتضى وضعها الجغرافي والسياسي والعسكري.

ونحن لا نستطيع أن نصدر أحكامًا في الأمور الفنية الاختصاصية التي يقصر إدراكنا الدراسي عن فهم مداخلها وأسرارها.

بيد أننا نبادر إلى القول بأننا لم نر في مطالعاتنا وقراءاتنا مَنْ زعم أن شيئًا من الإعجاز قاد زمام هذه المعركة، بل إنها كانت تدار بمحض القوة الفكرية التي أوتيها رسول الله ﷺ بوصفه قائدًا عسكريًّا وسياسيًّا حربيًّا، ومن هنا كانت هذه الواقعة بشرية في مباديها ونهاياتها».

[**محمد رسول الله ﷺ لعرجون ٣/ ٥٦٨ - ٥٧٠**].

٦ ـ أهمية وجود القائد القدوة في الجاهزية والتخطيط:

يقول أ/ فتح الباب: «إن طريق النصر هو الإيمان والصبر.

ولقد ألح الرسول ﷺ على هذا المعنى، وهو حث المسلمين المحاربين على الصبر، إذ أَمَرَ أصحابه بالتهيؤ لعدوهم، وبدأ بنفسه ـ وهو النبي المصطفى من الله لخُلُقه العظيم وشجاعته وإيمانه ـ فلبس سيفه وتقدم متجهًا إلى أحد ومعه المؤمنون، وعدتهم سبعمائة ليقاتلوا ثلاثة آلاف قرشي موتور من أهل مكة.

فلما بلغوا الجبل اجتازوا مسالكه وجعلوه إلى ظهورهم، وجعل الرسول ﷺ يَصُفُّهم، وقد وضع منهم خمسين من الرماة على شِعْبٍ في الجبل، وشدد عليهم الالتزام بأوامره كما سبق بيانه.

ثم نهى غير الرماة أن يقاتل أحدٌ حتى يأمر هو بالقتال.

ويتبين من هذه الخطة التي رسمها الرسول ﷺ ما وهبه الله تعالى من قدرة على التنظيم، والتنظيم لا يقل أهمية عن التخطيط، ولو أنه أحد عناصره، وحتى لقد أصبح اليوم علمًا قائمًا بذاته بعد أن تأكد أنه ضرورة لا غنى عنها في إدارة الجماعة». [**القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٦٧**].

ويقول د/ البوطي: «إذا تأملت حال الرسول ﷺ، وهو ينظم الصفوف ويرتب أجنحتهم، ويضع الحامية اللازمة في مؤخرة المسلمين، ويأمر الرماة ألا يغادروا أماكنهم مهما وجدوا من أمر إخوانهم المقاتلين حتى يتلقوا الأوامر منه ﷺ، نقول: إذا تأملت ذلك اتضحت حقيقة بارزة، ولاحت لك من ورائها ظاهرة هامة أخرى.

أما الحقيقة البارزة: فهي البراعة العسكرية التي كانت تتصف بها قيادته ﷺ في الحروب، فقد كان في مقدمة المخططين لفنون القتال وطرائقه، ولا ريب أن الله تعالى قد جهزه بعبقرية نادرة في هذا المجال.

ولكننا نقول: إن هذه العبقرية والبراعة إنما يأتي كل منهما من وراء نبوته ورسالته السماوية، فمركز النبوة والرسالة هو الذي اقتضاه أن يكون معصومًا بعيدًا عن كل انحراف وزلل.

وأما الظاهرة التي تلوح للمتأمل من خلال توصياته الدقيقة هذه لأصحابه عامة، وللرماة خاصة فهي ظاهرة ذات علاقة وثيقة بما قد تم بعد ذلك من خروج بعض أولئك الرماة على أوامره ﷺ، فكأن النبي ﷺ قد استشف بفراسة النبوة أو بوحي من الله تعالى هذا الذي قد حدث فيما بعد، فراح يؤكد التوصيات والأوامر، وكأنه في ذلك يُجري مناورة حية مع عدو لهم هو النفس وأهواؤها وما تنطوي عليه من طمع في المال والغنائم، والمناورة مهما كانت نتيجتها، تفيد فائدة عظيمة... وربما كانت النتائج السلبية أدعى للاستفادة من النتائج الإيجابية». [**فقه السيرة للبوطي ١٩١**].

٧ ـ الفن العسكري في تعبئة المسلمين:

يقول أ/ خلف الله: «كان المتحمسون من أنصار الخروج للقتال يتحرقون شوقًا إلى لقاء المشركين، وازدادوا غيظًا حينما رأوا المشركين قد أطلقوا سرحهم في زروع المدينة حتى قالوا: «أترعى زروع بني قيلة ـ أي الأوس والخزرج ـ ولما نضارب!»، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَ بِالقِتَالِ**».

وفي ذلك يقرر رسول الله ﷺ القاعدة الأساسية الأولى في قيادة الجيوش وهي محافظة الجيش على النظام العسكري وعدم الانقياد للعواطف، فلا يتحرك أحد للقتال إلا إذا أمر القائد العام، وما كانت العرب تراعي ذلك دائمًا لا سيما إذا حدث ما يثير حميتهم كما هو الحال هنا، ولو أنشب المتحمسون القتال قبل توزيع الجيش على المواقع الحربية لترتب على ذلك عواقب وخيمة، ثم إن القائد المحنك يقوم قبل القتال بدراسة أرض المعركة دراسة جيدة، وفي نفس الوقت يدرس تعبئة خصمه ليعبئ جيشه على طريقة تبطل تعبئة العدو وتكفل النصر عليه.

بعد دراسة تعبئة المشركين أمر رسولُ الله ﷺ الزبير بن العوام ﷺ أن يستقبل خالد بن الوليد، وكان في الجبل ممر يوصل إلى ظهر المسلمين، فجمع رسول الله ﷺ خمسين من الرماة وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير الأوسي ﷺ، وهو ممن حضروا بيعة العقبة وغزوة بدر، فهو يمتاز بكل الصفات التي تؤهله للقيام بالمهمة الخطيرة التي أُسندت إليه وهي حماية ظهر الجيش وأهمها الخبرة في القتال والشجاعة في تنفيذ الأوامر، وأصدر ﷺ تعليماته للرماة قائلًا: «**انْضَحُوا الخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ، لا يَأْتُونَا مِنْ خَلفِنَا**»، وشدد عليهم ﷺ في الاحتفاظ بأماكنهم بقوله: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»، ثم بيَّن لهم ﷺ أن النصر مكفول ما دام الرماة في أماكنهم بقوله: «**وَارْشُقُوا خَيْلَهُمْ بِالنَّبْلِ، فَإِنَّ الخَيْلَ لا تُقْدِمُ عَلَى النَّبْلِ، إِنَّا لا نَزَالُ غَالِبِينَ مَا ثَبَتُّمْ مَكَانَكُمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَيْهِمْ!**».

ولندرس الآن ما في تعليمات رسول الله ﷺ من فن عسكري [(١)]:

أولاً: أهمية دراسة شخصية العدو: من الأهمية بمكان في الحرب الحديثة أن يدرس القائد شخصية القائد أو القادة الذين يواجهونه، وهذه الدراسة تشمل الخصال التي يتبعونها في مختلف أدوار المعركة.

هذه الدراسة لازمة جدًّا للقائد الذي يريد أن يتغلب على خصمه لأنها سترشده إلى الطريقة المثلى للتغلب عليه، ورسولنا الكريم ﷺ نظر فوجد خالد بن الوليد على ميمنة الخيل، وهو يعرف أنه فارس

(١) من مقال للصاغ أركان حرب السيد محمد جمال الدين محفوظ نشر في مجلة الأزهر عدد رمضان سنة ١٣٧٣هـ.

ومقاتل من طراز فريد، فأراد أن يكون قبالته من المسلمين مَنْ يستطيع أن يقف أمامه وقفة الند للند فاختار الزبير ﷺ وقال له: «**استقبل خالد بن الوليد وكن بإزائه**».

ثانيًا: حماية ظهر الجيش: إن الظهر أضعف نقطة في كل جيش دائمًا وتقضي مسؤولية القائد عن سلامة جيشه أن يحمي ظهره، فالنبي الكريم ﷺ فطن إلى ذلك فلم يترك ذلك الممر الخطير في جبل أُحد الذي يؤدي لظهر المسلمين دون أن يتخذ له سبيل الحيطة ودرء الخطر.

ولقد كانت تعليماته للخمسين رجلًا من الرماة المهرة الذين جعلهم على هذا الممر آية من آيات العبقرية العسكرية التي تدل على الدراية الدقيقة بالتكتيك الحربي:

أ ـ تعيين الرماة المهرة عند الممر: لقد كان الأمر حقًّا يحتاج إلى مهرة الرماة حتى تمكن إصابة كل من يفكر في عبور المضيق، وإذا لم تكن نسبة الإصابة ١٠٠٪ سهل على العدو العبور غير مكترث بالإصابات المضطربة؛ ولذلك فإن المهارة في الرمي هي الصفة التي يجب أن يكون لها المقام الأول عند اختيار من يكلفون بمثل هذا الواجب.

ولا يفطن لهذا الأمر إلا الخبير المجرب في الفن العسكري؛ ولذلك كان تعيين النبي ﷺ لمهرة الرماة لهذا الواجب عملًا في غاية البراعة العسكرية.

ب ـ التشديد على هؤلاء الرماة بالبقاء في مكانهم: إن في قوله ﷺ: «**فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»، وتأكيده عليهم بعدم مغادرته بالمرة سواء هُزم المسلمون أو انتصروا حكمة عسكرية بالغة هي ضمان الحذر الكافي، وأخذ الحيطة كاملة ضد المفاجأة، فهذا المضيق يؤدي إلى ظهر المسلمين وهو لهذا بالغ الخطر عليهم، فإذا لاحظ العدو أنه مفتوح ليس عليه من يذب عنه فهو لابد واجد في ذلك من الفرصة الطيبة ما يمكنه من التسلل فيه ومفاجأة المسلمين وطعنهم في أضعف مكان في كل جيش «الظهر» ومثل هذه الفرصة لا تفوت على قائد موهوب مثل خالد.

وقد تكون خطة قريش أن ترسل جيشًا يتظاهر بالهزيمة أمام المسلمين، حتى إذا أغرى هذا المنظر الرماة القائمين على الممر وتركوا أماكنهم اخترقت خيلهم الممر وهناك تكون الطامة الكبرى، وهذا هو الذي دعا الرسول ﷺ إلى التشديد في تعليماته على رجاله بألا يغادروا أماكنهم بأي حال من الأحوال.

ج ـ الدراية التامة بطبيعة الخيل وفنون قتالها: فإن قول رسولنا ﷺ: «**فَإِنَّ الخَيْلَ لا تُقْدِمُ عَلَى النَّبْلِ**» يدل على إحاطته بطرق القتال بشتى نواحيها، وهو هنا يذكر لرجاله أن السهام هي الوسيلة الفعالة لقتال الخيل حيث إنها لا تقدم عليها، وإن القائد الخبير حقًّا هو الذي يعرف لكل سلاح من أسلحة عدوه الوسيلة الناجحة للوقوف أمامه أو القضاء عليه، وفي هذا ضمان للنصر وتوفير للوقت والجهد اللذين يضيعان في تجربة الكثير من وسائل المقاومة أو التدمير غير المجدية.

هذا وإذا نظرنا إلى تعليمات الرسول ﷺ بوجه عام وجدناها مثلًا كاملًا لمراعاة مبدأ الأمن والسلامة الذي يتخذه القائد لوقاية جيشه وهذا المبدأ هو: «**كل قائد مسؤول عن وقاية قوته**».

وفي التاريخ أمثلة كثيرة لجيوش دارت عليها الدائرة لعدم مراعاة هذا المبدأ الهام.

[غزوة أُحد لخلف الله ٦٥-٦٨].

٨ ـ ضرورة تعبئةِ الجند معنويًّا:

يقول د/ الرشيد: «إذا كان الجيش يحتاج إلى إعداد مادي من السلاح والعتاد، فإنه يحتاج كذلك إلى إعداد معنوي، وذلك بتعبئة أرواح الجند حتى يكونوا أقوياء على قتال أعدائهم.

ومما يبين منزلة التعبئة المعنوية للجيش ما قاله أهل الخبرة بالحرب: «**الرجال كالأشباح والتعابي كالأرواح، فإذا حَلَّتْ الأرواح الأشباح حَصُلَتْ الحياة**».

[العبرة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة للشيخ صديق بن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري ص ١٣، تحقيق الشيخ محمد السعيد بن بسيوني زغلول ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٥هـ].

وكان هَدْيُ الرسول ﷺ في الجهاد، أن يحرِّضَ أصحابه على قتال الأعداء، ويَحُثُّهم على التَحَلِّي بالصبر في ميادين القتال، لكي تتقَوَّى روحُهم المعنوية، وَيَصْمُدُوا عند ملاقاة أعدائهم، ومن ذلك ما فعله يوم أحد في خطبته الرائعة التي سبق ذكرها.

وتتلخص أهداف هذه الخطبة في ثلاثة أمور:

الأول: الحَثُّ على الجد والنشاط في ميدان الجهاد.

الثاني: الحَثُّ على الصبرِ عند قتال الأعداء.

الثالث: بيان مساوئ الاختلاف والتنازع.

ويُسْتَفَاد من تعبئة الرسول ﷺ الروحَ المعنوية لدى جنده أن الجيش وإن كان عظيمًا في تسليحه، دقيقًا في تنظيمه، فإن ذلك لا يغني شيئًا إلا إذا حملته نفوسٌ قويةٌ تحرص على الموت أَشَدَّ من حرصها على الحياة، ولن يَتَأَتَّى ذلك إلا إذا كانت قيادة الجيش تُعَبِّئُ أرواحَ جُنْدِها، كلَّما آنست منهم ضعفًا أو تَرَدُّدًا، وتغرس في نفوسهم ـ كذلك ـ حب الجهاد في سبيل الله..». [القيادة العسكرية للرشيد ٤٦٨-٤٦٩].

ويقول أ/ خلف الله: «لا تقل التعبئة المعنوية شأنًا عن التعبئة العسكرية حتى إن كبار القواد جعلوا نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ٣: ١ بشرط الاتفاق في نوع السلاح.

وكان رسول الله ﷺ لا يترك أمرًا فيه تقوية لروح المؤمنين المعنوية إلا فعله، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة توضح ذلك، ونثبت هنا جدولًا يبين نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية في بعض الغزوات:

الغزوة	المؤمنون		المشركون	
	العدد	نسبة القوة المعنوية	العدد	نسبة القوة المعنوية
بدر	٣١٣	٣ ½	١٠٠٠	١
أُحد	٧٠٠	٤ ⅓	٣٠٠٠	١
الخندق	٣٠٠٠	٣ ½	١١٠٠٠	١

ولو راعينا في غزوة أُحد انخذال المنافقين بثلث الجيش، وهذا من عوامل انهيار القوة المعنوية، لوصلت قوة المسلمين المعنوية إلى ضعف نسبتها الأصلية، ولو راجعنا المعارك الحربية لوجدنا أنه من النادر انتصار جيش ينسحب ثلثه قبيل المعركة.

ونلاحظ من ناحية أخرى أن رسول الله ﷺ «كان يحارب عربًا بعرب، وقرشيين بقرشيين، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة، فلا يُقال هنا إن الفضل لقوم على قوم في المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والإيمان».

[عبقرية محمد ﷺ للعقاد ص٦٤].

هذا وقد رأينا في المناقشة التي دارت حول الخروج لقتال المشركين مقدار شوق الصحب ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ إلى الشهادة في سبيل الله تعالى، ورأينا في استعراض جيش المسلمين مقدار شوق هؤلاء الذين ردهم رسول الله ﷺ لصغر سنهم، وكان الذين وضع الله تعالى عنهم الجهاد لسبب من الأسباب المانعة يتسابقون إلى الخروج مع جيش المسلمين طلبًا للشهادة.

كان لعمرو بن الجموح ﷺ أربعة بنين يغزون مع رسول الله ﷺ فجمعهم وأخبرهم بعزمه على القتال مع المسلمين فقال له بنوه: «**إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ عَذَرَكَ، جعلَ لَكَ رُخْصَةً، فَلَوْ قَعَدْتَ وَنَحْنُ نَكْفِيكَ، وَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الجِهَادَ**»، وكان عمرو بن الجموح ﷺ يشكو من عرج شديد، وأراد بنوه أن يجنبوه مشقة القتال؛ لأن ما به من العرج يعوقه عن سرعة الحركة في الميدان، ولكنه لم يرض عن موقف بنيه منه وشعر أنه لو تخلف عن القتال لزهقت روحه، فجمعهم وتوجه بهم إلى رسول الله ﷺ يشكوهم قائلًا: «**يا رسُولَ الله! إنَ بَنِيَّ هؤلاءِ يُرِيدُونَ أَنْ يَحْبِسُونِي عَنْ هَذَا الوَجْهِ، وَالخُرُوجِ مَعَكَ فِيهِ، فَوالله إِنِّي لأَرْجُو أن [أُسْتَشْهدَ] فأطأ بعَرْجَتِي هذِهِ فِي الجَنَّةِ**)، فأجابه ﷺ: «**أَمَّا أَنْتَ، فَقَدْ وَضَعَ اللهُ عَنْكَ الجِهَادَ**»، وقال لبنيه: «**ومَا عَلَيْكُمْ أَلا تَمْنَعُوهُ، لَعَلَّ اللهَ ﷻ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ**» فكان من شهداء أُحد.

وجاء خيثمة بن الحارث بن مالك الأوسي ﷺ (هو أحد النقباء في بيعة العقبة، وقد استشهد في أُحد قتله هبيرة بن أبي وهب المخزومي) إلى رسول الله ﷺ يقول: **لَقَدْ أَخْطَأَتْنِي وَقْعَةُ بَدْرٍ، وَقَدْ كُنْتُ عَلَيْهَا حَرِيصًا، لَقَدْ بَلَغَ مِنْ حِرْصِي أَنْ سَاهَمْتُ ابْنِي فِي الْخُرُوجِ فَخَرَجَ سَهْمُهُ فَرُزِقَ الشَّهَادَةَ، وَقَدْ كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى الشَّهَادَةِ.**

وَقَدْ رَأَيْتُ ابْنِي البَارِحَةَ فِي النَّوْمِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ يَسْرَحُ فِي ثِمَارِ الجَنَّةِ وَأَنْهَارِهَا وَهُوَ يَقُولُ: الحَقْ بِنَا تُرَافِقْنَا فِي الجَنَّةِ، فَقَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا، وَقَدْ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! أَصْبَحْتُ مُشْتَاقًا إِلَى مُرَافَقَتِهِ فِي الجَنَّةِ، وَقَدْ كَبِرَتْ سِنِّي، وَرَقَّ عَظْمِي، وَأَحْبَبْتُ لِقَاءَ رَبِّي، فَادْعُ اللهَ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ وَمُرَافَقَةَ سَعْدٍ[1] **فِي الجَنَّةِ.**

فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِذَلِكَ، فَقُتِلَ بِأُحُدٍ شَهِيدًا.

بهذا الأسلوب المؤثر يستأذن خيثمة ﷺ في الخروج للقتال وهو يحرص على الشهادة أشد من حرص الملوك على عروشهم، إنه يقدم نفسه قربانًا كي يسعد البشر بانتصار المبادئ الإنسانية العالية، ويحق للإنسانية أن تفخر بمثل هؤلاء الذين يضحون بأنفسهم في سبيل سعادة البشر جميعًا.

وكان من بين الذين تُركوا في المدينة لكبر السن حسيل بن جابر (اشتهر باليمان وهو والد حذيفة الصحابي) وثابت بن وقش، فالتقيا وقال أحدهما لصاحبه: «**لَا أَبَا لَكَ، مَا تَنْتَظِرُ؟، فَوَاللهِ لَا بَقِيَ لِوَاحِدٍ مِنَّا مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا ظِمْءُ حِمَارٍ [دَابَّةٍ]، إِنَّمَا نَحْنُ هَامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ، أَفَلَا نَأْخُذُ أَسْيَافَنَا، ثُمّ نَلْحَقُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَعَلَّ اللهَ يَرْزُقُنَا شَهَادَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟**»، فأخذا سلاحهما وخرجا وشهدا المعركة واستشهدا.

وكان عبد الله بن جحش ﷺ يدعو الله تعالى فيقول: **اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي غَدًا، رَجُلًا شَدِيدًا بَأْسُهُ، شَدِيدًا حَرْدُهُ، فَأُقَاتِلُهُ، وَيُقَاتِلْنِي، ثُمَّ يَأْخُذْنِي، فَيَجْدَعَ أَنْفِي وَأُذُنِي، فَإِذَا لَقِيتُكَ غَدًا قُلْتَ لِي: يَا عَبْدَ اللهِ! فِيمَ جُدِعَ أَنْفُكَ وَأُذُنَاكَ؟ فَأَقُولُ: فِيكَ وَفِي رَسُولِكَ، فَتَقُولَ: صَدَقْتَ.**

وها هو ذا حنظلة ﷺ[2] الغسيل يترك زوجه ليلة عرسه وينطلق إلى المعركة ملبيًا دعوة رسول الله ﷺ؛ لأن الجهاد عنده أغلى وأطيب من العروس ليلة زفافها.

وبايع رسولُ الله ﷺ نفرًا من أصحابه على عدم الفرار يوم أُحد ومنهم أبو بكر الصديق، وعمر ابن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسهل بن حنيف، وأبو دجانة رضي الله عنهم.

---

(١) هو سعد بن خيثمة، وكان أبوه قد استهم معه في غزوة بدر على القتال مع المسلمين، فلما خرج السهم على ابنه «سعد» قال له أبوه: «يا بني آثرني اليوم»، فقال: «و يا أبت لو كان غير الجنة لفعلت» يقصد الشهادة في سبيل الله.

(٢) كان قد بنى ليلة أحد بجميلة أخت عبد الله بن أبي بن سلول. ووالد حنظلة كان من كبار المحرضين على قتال المسلمين وهو أبو عامر الفاسق.

ولا نعلم حتى الآن هيئة عسكرية وضعت قواعد دقيقة للمحافظة على الروح المعنوية مثلما فعلت القيادة الإسلامية الأولى حتى أصبح كل فرد يمتاز بجميع الصفات التي تؤهل الإنسان لبذل كل تضحية في سبيل الدفاع عن المبدأ، ومن هذه القواعد:

١ـ بيان عظم أجر الجهاد: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾[التوبة].

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ لَهُ عِنْدَ الله خَيْرٌ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدَ؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى**». [البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٥)].

وفي رواية: «**مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، إِلَّا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ**». [البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٧)].

وفي رواية: «**مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ الله خَيْرٌ يَسُرُّهَا أَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلَا أَنَّ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدُ، فَإِنَّهُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ فَيُقْتَلَ فِي الدُّنْيَا؛ لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ**». [مسلم في الإمارة (١٨٧٧)].

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا (فِيهَا)، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنْ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا (فِيهَا)، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا العَبْدُ فِي سَبِيلِ الله أَوْ الغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا (فِيهَا)**».

[البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٤)، ومسند أحمد (٢٢٣٦٥)].

٢ـ النهي عن الفرار في الميدان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[الأنفال].

٣ـ النهي عن الأخذ بعوامل الضعف مثل:

أ ـ النزاع والمخاصمة: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[الأنفال].

ب ـ الغرور والاستهتار والرياء والسمعة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[الأنفال].

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**الغَزْوُ غَزْوَانِ: فَأَمَّا مَنْ ابْتَغَى وَجْهَ اللهِ، وَأَطَاعَ الإِمَامَ، وَأَنْفَقَ الكَرِيمَةَ، وَيَاسَرَ الشَّرِيكَ، وَاجْتَنَبَ الفَسَادَ، فَإِنَّ نَوْمَهُ وَنُبْهَهُ أَجْرٌ كُلُّهُ، وَأَمَّا مَنْ غَزَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَسُمْعَةً، وَعَصَى الإِمَامَ، وَأَفْسَدَ فِي الأَرْضِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ بِالكَفَافِ**».

[رواه أحمد في مسنده وأبو داود في باب الجهاد عن حيوة بن شريح، والنسائي فيه أيضًا عن عمرو بن عثمان، والموطأ في نفس الباب عن يحيى بن سعيد موقوف على معاذ ﷺ].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.**

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

[مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، والنسائي في الجهاد (٣١٣٧)، وأحمد عن أبي هريرة ﷺ (٨٠٧٨)].

وقال ﷺ: «**إِنَّ يَسِيرَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ**». [رواه الحاكم مرفوعًا من حديث معاذ ﷺ، وقال: حديث صحيح الإسناد].

ج ـ أن ينزه المجاهد نفسه عن الأهداف الدنيوية كالغنيمة؛ لأن من شأنها دفع المقاتل إلى الهرب لينجو.

٤ ـ التحلي بالصفات الموجبة للنصر مثل:

أ ـ الثبات ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال]؛ ذلك لأن قلوب المؤمنين تطمئن وتسكن بذكر الله تعالى فتستعذب الشهادة في سبيله.

ب ـ الصبر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال]، ويكفي أن الله تعالى أثبت معيته للصابرين ﴿وَٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال].

ج ـ عدم الرهبة من كثرة العدو إذ أن المدار في النصر على الصدق في الإيمان: ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال].

﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال].

٥ ـ وعد الله تعالى المؤمنين بالنصر والظفر ما اتبعوا القواعد المقررة لذلك». [غزوة أُحد لخلف الله ٦٨-٧٤].

٩ ـ استثارة روح المنافسة الشريفة بين الجنود:

يقول د/ الرشيد: «من مسؤوليات القيادة استثارةُ همم الجنود، وبَثُّ روح المنافسة الشريفة بينهم حتى تقوى روحُهم المعنوية على قتال الأعداء.

وفي يوم أُحد استثار الرسول ﷺ هِمَمَ أصحابه قبل بدء القتال فأخرج سيفًا ورفعه قائلًا: «**مَنْ يأخذ هذا السيف**»؟، فاشرأبت إليه أنفس الصحابة، كلٌّ يُمَنِّي نَفْسَه بأخذ سيف رسول الله ﷺ، ولكن النبي ﷺ ما كان ليعطي هذا السيف إلا مَنْ هو أهله من حيث الكفاءة القتالية؛ لكي يكون ذلك دافعًا إلى استبسال الجنود وإقدامهم على قتال الأعداء. [ينظر: غزوة أحد لأبي فارس ص ٦٦].

وفي عصرنا الحاضر ينبغي أن يَعِيَ قادةُ الجيوش الإسلامية هذا الدرس، ويقتدوا برسول الله ﷺ في استثارة هِمَمِ جنودهم، وهذا بلا شك له آثاره النفسية لدى الجند، مما يجعلهم يتحمَّسون لقتال أعدائهم».

[القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٧٠].

١٠ ـ أهمية الضبط والربط في نجاح المعركة:

يقول أ/ عبَّاد: «وهكذا ـ بغلطة الرماة وعصيانهم لرسول الله ﷺ ـ دارت دائرة الحرب وانتكست كفتها واتجهت وجهة أخرى، أما النصر الذي كاد أن يتحقق تحول إلى كارثة مروعة، حيث قُتل أكثر من ستين مسلمًا، وأصابت النبي ﷺ جراحات كثيرة، فما أبهظ أعباء النصر وما أسرع ما يتعرض للضياع بأدنى بادرة تهاون أو تفريط يستمرئ فيها المنتصر فرحته فيغفل عن موقعه تجاه عدوه ويتهاون في تقدير طاقة التحدي في المنهزم، فبخطأ الرماة تغير وجه المعركة وضاع النصر من المسلمين، وقد كان لهم دون ريب.

يقول د/ الحميدي: «ولقد ضرب ابن جبير وصحبه رضي الله عنهم في ذلك مثلًا عاليًا في طاعة رسول الله ﷺ والتضحية بالنفس في سبيل حماية المسلمين.

لقد استعمل رضي الله عنه كل ما في جعبته من سلاح فرماهم بالنبل حتى فنيت سهامه ثم طاعنهم بالرمح حتى انكسر ثم كسر جفن سيفه مُشْعرًا أعداءه بأنه سيستقتل هو وأصحابه حماية للمسلمين، وهذا يصور لنا قوة المقاومة التي شنها ابن جبير رضي الله عنه على الأعداء.

وقد يُقال: ما قيمة عشرة مشاة في مقابل جيش من الفرسان؟ أفلا انحازوا إلى جيش المسلمين ليحموا أنفسهم وليكثِّروا الجيش الإسلامي؟

فيقال: إن هؤلاء أولًا: من قوم لا يُلقون بالًا لحماية أنفسهم، بل إن أسمى أمانيهم أن يفوزوا بالشهادة في سبيل الله تعالى.

وثانيًا: هم يُنَفِّذون أمر النبي ﷺ، فهم لا يلتفتون إلى أي سلوك آخر يتعارض مع طاعة الأمر النبوي.

وثالثًا: فإن وقوفهم في وجه الأعداء يؤخر هجومهم بعض الوقت، وربما تنبه لهم المسلمون فيقومون بهجوم مضاد عليهم، فوقوف هؤلاء النفر في وجه الأعداء المهاجمين كان هو عين الحكمة لهذه الوجوه المذكورة وغيرها». [**التاريخ الإسلامي للحميدي ٥/ ١٣٢-١٣٣**].

ومما سبق يتضح أهمية الضبط والربط في نجاح المعركة، والضبط والربط معناهما الصحيح هو حسن فهم الأوامر الصادرة من القيادة وتنفيذها بدقة وعدم محاولة لَيِّ الأمر أو تأويله ليناسب هوى الجندي.

هذا تقرير لحال الرماة، ولقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة ووقع النزاع بينهم وانتهى الأمر إلى العصيان فكانوا فريقين: فريق يريد غنيمة الدنيا، وفريق يريد ثواب الآخرة، فتوزعت القلوب ولم يعد الصف وحدة واحدة ولم يعد الهدف واحدًا، بل شابت المطامع الإخلاص والتجرد الذي لابد منه في معركة العقيدة؛ لأن معركة العقيدة معركة في الميدان ومعركة في الضمير، ولا انتصار في معركة الميدان دون الانتصار في معركة الضمير، إنها معركة لله فلا ينصر الله فيها إلا من خلصت نفوسهم له.

والقرآن يسلط الأضواء على خفايا القلوب التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم، فيقول عبد الله بن مسعود ﷺ: **ما كنت أرى أن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا:** ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[آل عمران: ١٥٢].

بذلك يحدد الله للجماعة المسلمة من أين تأتي الهزيمة ليتقوها.

معركة بلاط الشهداء ونسيان الدرس الأُحدي: وحينما نسي المسلمون هذا الدرس تكررت الواقعة، ففي معركة بلاط الشهداء عام ١١٤ هـ والتي وقعت بين المسلمين والفرنج في سهول فرنسا على ضفاف نهر اللوار، حيث استولى الجيش الإسلامي بقيادة عبد الرحمن الغافقي على أجزاء كثيرة من فرنسا وغنم الجيش كثيرًا من الغنائم النفيسة حتى جعلوا لها معسكرًا خاصًّا بها، وقدر القائد عبد الرحمن الغافقي خطر هذه الغنائم على نظام الجيش وأهبته وخشي مما تثيره في نفوس الجند من الحرص والانشغال فحاول عبثًا أن يحملهم على ترك جزء منها، ولكنه لم يشدد في ذلك خشية التمرد، وفي أواخر شهر شعبان سنة ١١٤ هـ بدأ القتال بين الجيشين واستمر ثمانية أيام احتفظ خلالها كل جيش بمركزه حتى إذا اليوم التاسع نشبت معركة فاصلة فاقتتلوا بشدة حتى دخول الليل واستأنفوا القتال في اليوم التالي وبدأ الإعياء يدب في جيش الفرنج ولاح النصر للمسلمين، بالرغم من أن جيش الفرنج

يزيد عنهم أضعافًا، ولكن استطاع جيش الفرنج أن يفتح ثغرة بمعسكر الغنائم وخاف الجند على الغنائم فارتدت قوة كبيرة من الفرسان من قلب المعركة إلى ما وراء الصفوف لحماية الغنائم وتواثب كثير من الجند للدفاع عن الغنائم فدب الخلل في صفوف المسلمين، وعبثًا حاول الغافقي أن يعيد النظام، ولكن أصابه سهم أودى بحياته فسقط شهيدًا، فعم الذعر والاضطراب في الجيش الإسلامي واشتدت وطأة جيش الفرنج عليهم وكثر القتل في المسلمين، ثم انسحب الجيش الإسلامي تاركًا وراءه الغنائم والأسلاب، وهكذا استطاعت الغنائم أن تهزم المسلمين مرة ثانية، وسيُهزمون دائمًا ما لم يتجردوا من ذلك». [مفاهيم تربوية من غزوة أُحد لعبَّاد ٩٨-١٠١].

١١ ـ خطورة مخالفة أوامر القائد:

يقول د/ الرشيد: «يُعَدُّ تنفيذ الأوامر في ميدان الحرب أمرًا مهمًّا إذ إنه ـ بمشيئة الله ـ سببٌ في حصول المصالح ودفع المفاسد.

ولما كان القائد وحدَه هو المسؤول عن سير العمليات وعن إصدار الأوامر ومراقبة تنفيذها، استقرَّ رأي العسكريين على أنه ينبغي أن تكونَ طاعةُ الجندِ لقائدهم طاعةً لا رَجْعَةَ فيها.

[ينظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ ص ٤١٣].

وقد أَكَّدَ الرسول ﷺ على هذا الأمر في ثاني لقاء مع المشركين، لِيُعَلِّمَ المؤمنين من بعدُ قادةً وجنودًا أهميةَ العنايةِ بأمر الطاعة للأوامر؛ لأن لها أثرًا كبيرًا في سير المعارك ونتائجها.

ففي غزوة أحد وضع ﷺ على جبل أُحد جماعةً من الرُّماة، وجعل عليهم أميرًا، وذلك لحماية ظهور المسلمين من الخلف، وأَكَّدَ عليهم عدم مغادرة المكان مهما كانت الحالة، ولكنهم خالفوا أمره فَحَلَّتْ بهم المصائب.

وهذا أعظم دليل على سوء عاقبةِ مخالفةِ الجنودِ لأمر قائدهم، حيث عَمَّ ضرر هذه المعصية مَنْ لم تقع منه. [فتح الباري ٧/ ٣٥٣].

وقد نزل القرآن الكريم يصور حالة المؤمنين في ذلك اليوم، وذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

ففي هذه الآية تقرير لحالة الرماة وقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة، ووقع النزاع بينهم وبين من يرى الطاعة التامة لرسول الله ﷺ، وقد انتهى الأمر بهم إلى العصيان، حينئذ عاقبهم الله بأن «صرف الله قوتهم وبأسهم وانتباههم عن المشركين، وصرف الرماة عن ثغرة الجبل، وصرف بعض المقاتلين عن الميدان، فلاذوا بالفرار». [ينظر: في ظلال القرآن ١/ ٤٩٤].

كما كانت مخالفة الرُّماة سببًا في عدم إمداد المؤمنين بالملائكة في ذلك اليوم وذلك لضعف أرواحهم.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[آل عمران].

فقال رحمه الله: «كان المؤمنون يوم بدرٍ في قلةٍ وذلةٍ من الضعف والحاجة، فلم يكن لهما اعتماد إلا على الله تعالى، وما وهبهم من قوة في أموالهم ونفوسهم، وما أمرهم به من الثبات والذكر، إذ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الأنفال].

فبذلوا كلَّ قُوَاهُم وامتَثَلُوا أمرَ ربهم، ولم يكن في نفوسهم استشرافٌ إلى شيءٍ غيرَ نصر الله وإقامةِ دينِه والذَّوْدِ عن نبيه، لا في أول القتال، ولا في أثنائه، فكانت أرواحهم بهذا الإيمان وهذا الصفاء قد عَلَتْ وارتفعت، حتى استعدت لقَبُولِ الإلهام من أرواح الملائكة، والتَّقَوِّي بنوعٍ ما من الاتصال بها.

وأما يوم أُحد فقد كان بعضهم في أول الأمر على مَقْرُبَةٍ من الافتتان بما كان من المنافقين؛ ولذلك همَّتْ طائفتان منهم أن تفشلا، ثم إنهم لما تَثَبَّتُوا وباشروا القتال انتصروا وهزموا المشركين الذين هم أكثر منهم، فكان بعد ذلك أن خرج بعضهم عن التقوى، وخالفوا أمر الرسول ﷺ وطمعوا في الغنيمة وفشلوا وتنازعوا في الأمر، فضَعُفَ استعداد أرواحهم فلم تَرْتَقِ إلى أهلية الاستمداد من أرواح الملائكة، فلم يكن منهم مدد لأن الإمداد لا يكون إلا على حسب الاستعداد». [تفسير المنار ٤/ ١١٥].

وقد كان النصر في أول المعركة للمؤمنين، ولكنهم حين خالفوا أمر قائدِهم ﷺ حَلَّتْ بهم تلك المصائب.

وما حدث للصحابة في ذلك اليوم، يَدُلُّنا على أهمية الطاعة في الحرب، وأنها أفضل من بعض القتال.

[ينظر: شرح السير الكبير ١/ ٦٠]». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٦٦-٤٦٨].

ويقول د/ خير هيكل: «هذا، ولعله من المفيد أن ننقل، هنا، فقرات من كتاب «**السير الكبير وشرحه**» تجلي لنا بعض المواقف التي تعرض للجيش مما يتصل بشؤون الحرب، والقتال، ودخول بلاد العدو... وذلك حين تصدر القيادة، في هذا الصدد، بعض التعليمات والأوامر، فتختلف بشأنها وجهات النظر بين القيادة، وبين الخاضعين لها ـ فيما هو التصرف الشرعي إزاء هذه المواقف، والأوامر؟ متى تجب الطاعة؟ ومتى تجب المخالفة؟

ـ جاء في الكتاب المذكور ما يلي: «وإذا دخل العسكر دار الحرب للقتال، بتوفيق الله ﷻ، فأمرهم بشيء من أمر الحرب، فإن كان فيما أمرهم به منفعة لهم فعليهم أن يطيعوه.. وقد تكون طاعة الأمير في

الكفِّ عن القتال خيرًا من كثير من القتال، وقد يكون الظاهر الذي يعتمده الجند يدلهم على شيء، والأمر في الحقيقة بخلاف ذلك عند الأمير، ولا يرى الصواب في أن يُطْلِع على ما هو الحقيقة عامة الجند! فلهذا كان عليهم الطاعة ما لم يأمرهم بأمر يخافون منه الهلكة، وعلى ذلك أكثر رأي جماعتهم، لا يشكون في ذلك، فإذا كان هكذا فلا طاعة له عليهم... وإن كان الناس في ذلك الأمر مختلفين، فمنهم من يقول: فيه الهلكة، ومنهم من يقول: فيه النجاة، فليطيعوا الأمير في ذلك.. إلا أن يأمرهم بأمر ظاهر لا يكاد يخفى على أحد أنه هلكة، أو أمرهم بمعصية، فحينئذ لا طاعة عليهم في ذلك، ولكن ينبغي أن يصبروا، ولا يخرجوا على أميرهم... وإذا نادى الأمير أن يكون فلان وجنده في الميمنة، وفلان وجنده في المقدمة، وفلان وجنده في الميسرة، وفلان وجنده في الساقة، فلا ينبغي لأحد أن يترك الموضع الذي أمره بالكون فيه؛ لأن هذا من التدبير الحسن في أمر الحرب، فإنما تظهر فائدته بالطاعة... وإن أمرهم الإمام أن لا يبرحوا من مراكزهم، ونهى عن أن يعين بعضهم بعضًا فلا ينبغي لهم أن يعصوه، وإن أمنوا من ناحيتهم وخافوا على غيرهم؛ لأن طاعة الإمام فرض عليهم بدليل مقطوع به، وما يخافونه موهوم، على ما قيل: أكثر ما يُخاف ـ لا يكون! والأصل فيه ما رُوي أن النبي ﷺ أمر الرماة يوم «أُحُد» أن يقيموا بموضع، ولا يبرحوا من مراكزهم، فلما نظروا إلى المشركين، وقد انهزموا، ذهبوا يطلبون الغنيمة، فكانت هزيمة المسلمين في ناحيتهم. [ينظر في ذلك صحيح البخاري (٤٠٤٣)، فتح الباري ٧/ ٣٤٩].

كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]ـ ثم قال: ولا بأس بأن تخرج الجماعة الممتنعة إلى العلافة (طلب العلف للدواب)، بغير إذن الوالي، فيعتلفون، ثم يرجعون به، وجود دلالة الإذن، فإن الإمام جرَّهم إلى ذلك الموضع، مع علمه أنهم يحتاجون إلى العلف، وأنه يشق عليهم استصحاب العلف من دار الإسلام، ولا يجدون في دار الحرب من يشترونه منه.. وإذا نادى منادي الأمير بالنهي عن الخروج للعلافة، فلا ينبغي لأهل منعة، ولا لغيرهم أن يخرجوا؛ لأن دلالة الإذن تنعدم بصريح النهي، وربما يكون النظر (أي: رعاية المصلحة)، في هذا النهي، إلا أنه ينبغي للإمام أن يبعث لذلك قومًا.. وبعدما نهى الوالي الناس عن الخروج إذا أصابهم ضرورة من العلف، وخافوا على أنفسهم، أو على ظهورهم (دوابهم)، ولم يجدوا ما يشترون، فلا بأس بأن يخرجوا في طلب العلف؛ لأن موضع الضرورة مستثنى عن موجب الأمر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]... ولا أحب إذا انتهوا إلى القرى (أي: في طلب العلف) أن يدخل الرجل الواحد! لعل فيها قومًا مختفين فيقتلونه، ولكن يدخل عددٌ القرية متأهبين للقتال، فإن كان فيها أحدٌ أعلم بعضهم بعضًا، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ (الثبة: الجماعة، والعصبة من الفرسان. القاموس

المحيط ٤/ ٣٠٩) ﴿أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء] وإن نهى الأميرُ المسلمين أن يقطعوا الشجر، أو يهدموا الأبنية، فليس ينبغي لهم أن يعصوه في ذلك؛ لأن في هذا النهي احتمال معنى النظر للمسلمين، وهذا المنع من أمر الحرب، ولو نهاهم عن القتال، كان عليهم أن لا يعصوه ما لم يأت ضررًا، أو معصية، فكذلك إذا نهاهم عن هذه الخصال...». [شرح السير الكبير ١/ ١٦٥ - ١٧٨. وينظر: المغني لابن قدامة ١٠/ ٣٩٣-٣٩٤].

أقول: كانت تلك صورًا من المواقف المختلفة التي تعرض للجيش في شؤونه العسكرية، والحربية مما كان يجري في القديم.

هذا، ومن الواضح أنه في العصور الحديثة رغم تغير كثير من الأمور المتعلقة بشؤون الجيش والقتال ـ كثيرًا ما تَعرض للمقاتلين مواقف تشابه تلك الصور القديمة أو ما يقرب منها...

ومن هنا، يكون النص الذي تقدم مفيدًا في إلقاء الأضواء حول معرفة ـ متى تجب الطاعة؟ ومتى يجب الخروج عليها؟ فيما يقاس من مواقف جديدة على الصور القديمة الآنفة الذكر، بدون حاجة إلى الدخول في تفصيلات ذلك». [الجهاد والقتال لخير هيكل ٢/ ١١٠٦-١١٠٨].

١٢ ـ صلاح العقيدة والأخذ بالأسباب:

يقول د/ أبو خليل: «ما الذي دفع الرماة إلى هذه المخالفة التي خرقت الخطة العسكرية، وأوقعتهم في الهزيمة؟

ـ أهو الخروج على طاعة القائد؟

ـ أم هو الحرص على اغتنام الغنائم وجمع الأسلاب؟

ـ أم هو خطأ التقدير لظروف المعركة وملابساتها؟

إنهم تأولوا قول رسول الله ﷺ حين رأوا الأعداء منهزمين، وإخوانهم يجمعون الغنائم، فلا بأس من مغادرة المواقع والاشتراك في جمع الغنائم، فأراد الله أن يدرك المؤمنون سنة من سننه في خلقه، أن النصر ـ لا يكون إلا بأسبابه، وأن الهزيمة لها أسبابها أيضًا، حتى لو كان رسول الله ﷺ بين الصحابة في المعركة.

وهذا يدل بوضوح على أن صلاح العقيدة وحده غير كاف لتحقيق النصر، فللنصر نواميسه وأسبابه، وأن الأخذ بهذه الأسباب من صلاح هذه العقيدة.. إن منهج الله ثابت، وموازينه ثابتة.

«لقد ربى الله الجماعة الإسلامية في هزيمة أُحُد العسكرية، وهي في مطلع خطواتها لقيادة البشرية، رباها بالابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بالهزيمة المُرَّة بعد الابتلاء بالنصر، هذا وذاك وضعا وفق أسبابهما، ووفق سنن الله الجارية في النصر والهزيمة؛ لتتعلم هذه الجماعة أسباب النصر والهزيمة؛ ولتزيد طاعة لله، وتوكلًا عليه، والتصاقًا بركنه، وتطبيقًا لشرعه، ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين». [في ظلال القرآن ١/ ٤٨١]. [غزوة أُحد لأبي خليل ١٣٣-١٣٤].

١٣ ـ حسن اغتنام الفرص:

يقول الشيخ أبو خوات: «لقد بدأت الحرب لمصلحة المسلمين بشكل ملحوظ، سواء في ترتيب موقف الجيش أم في عدد القتلى من المشركين بادئ ذي بدء، حتى إنه ما حمل اللواء واحد منهم إلا قُتل، فكان شؤمًا على كل مَنْ حمله، وسقط دونه أحد عشر رجلًا على التوالي، وكانت نكبة آل أبي طلحة بهذا العَلَم كفيلة بإثارة الرعب في قلوب المشركين حيث قتل منهم سبعة على التوالي كلهم حَمَل العَلَم.

وتمكن المسلمون في أول ساعات المعركة من إزالة المشركين عن أماكنهم فانهزموا وولوا هاربين، وتبعهم المسلمون ينهبون المعسكر ويستولون على ما فيه من الغنائم، وهنا استولى على المسلمين اغتنام فرصة الاستيلاء على حطام المعركة قبل أن تنتهي، وكان يمكن أن تكون هذه الحالة نهاية المعركة، لولا أن خيالة المشركين اغتنموا فرصة أخرى:

مال المسلمون إلى المال فمالت بهم نتيجتها عن الغاية التي يرجونها، فكانت فرصتهم في تحقيق ما يرجون أبعد شيء عن التحقيق، وأما خالد ـ قائد خيالة المشركين ـ فقد قويت في نفسه إرادة النصر فانتهز فرصة وقوع المسلمين وبخاصة رماتهم على الغنيمة يجمعونها وكر عليهم كرته القاتلة التي تغيرت بعدها نتيجة المعركة من انتظار نصر كبير إلى وقوع هزيمة كبيرة، فما أبعد الفرق بين الفرصتين!

ولعل هذا الدرس يعطينا حقيقة النصر، فليس النصر بالاستيلاء على المال والسلاح، وإنما النصر يتحقق بإفقاد العدو إرادة المقاومة، ولا يفقد العدو هذه الإرادة إلا بعد شعوره بفقد كل شيء.

وفي هذا الموقف ينبغي أن نتساءل: هل كان القائد في غفلة عن التنبيه لهذا الموقف؟

والجواب يرويه الثقات من رواة السيرة فإن القائد النبي ﷺ قال للرماة: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ، فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا القَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**»، ثم يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُشْهِدُكَ عَلَيْهِمْ!**» والسبب في هذا التنبيه الشديد، أن المسلمين لم يكن معهم سوى فرسين وكان مع المشركين مائتا فرس، فكانت القيادة الرشيدة تقضي بوقوف الرماة ثابتين في وجه خيل المشركين؛ لأن الخيل لا تُقبل على النبل، فكانت الحيلة الوحيدة لانعدام أثر التفوق في عدد الخيل إفساد جهدها بالثبات وسرعة الرمي وتتابعه، وذلك تخطيط غاية في الخبرة الحربية، وهو نفس التخطيط الذي نفذ في غزوة بدر حين وقف جماعة من المسلمين يرشقون خيل المشركين رشقًا عنيفًا في عيونها ومناخرها فولت الأدبار، وهو نفس التخطيط الذي نفذ في حرب فيلة الفرس حين كان المسلمون يدسون نبالهم لتدخل في عيون الفيلة دون أن تنكسر على ما تدرعت به من مضاعف الحديد، ولولا أن حربة الرسول ﷺ اغتنمت فرصة هي الأخرى لما أصابت عنق أبي بن خلف ليموت منها في طريق العودة، فقد كان يلبس البيضة والمغفر والدرع ولم يكن شيء من بدنه ظاهرًا حتى يضرب فيه بإصابة

قاتلة، ولما مال برأسه ليحسن التسديد إلى رسول الله ﷺ ليقتله ظهر جزء من أسفل عنقه بين المغفر والدرع، وفي سرعة سريعة كان هذا الجزء هدف الحربة القاتلة، وهكذا يعطينا الموقف دروسًا عدة لو استوعبناها في حياتنا لكان لها نفع عظيم.

نخرج من هذا بأن القائد الحذر الناجح هو الذي يخطط للنصر ويجعل للفرصة الطائرة مكانًا في خطته، فإذا لاحت درسها بما تستحق من سرعة ثم اغتنمها لتكون نصرًا غاليًا بأرخص الأثمان.

وبأن طاعة القائد وتنفيذ أوامره شأن لا يجوز العدول عنه مهما كانت الحال، فإن القائد عادة يرى الأمور من جميع زواياها، وربما يعرف من الأسرار ما ينبغي كتمانه عن بعض مساعديه، أما الجند وقادتهم النوعيون فإنهم إذا تصرفوا في المعركة من ذات أنفسهم فقد تختلط خطة كل منهم بخطة زميله أو تتعارض معها فتنهار خطة القيادة كلها ويضيع النصر رغم كثرة الضحايا، وهذا ما حدث في غزوة أُحد حين اختار الرماة الفرصة الدنيا فأكبوا على جمع الغنائم، واختار خيالة المشركين الفرصة العليا فكروا على المسلمين وخصوا الرماة أنفسهم بأشد أنواع التقتيل، فذاقوا ـ وهم سبب الهزيمة ـ أَمَرَّ كأس من كؤوسها المُرَّة». [دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٤٠-٤٤].

١٤ ـ مهارة النبي ﷺ في فنون الحرب، ورباطَةُ جَأشِه في المعارك وقوة إيمانه:

يقول د/ فيض الله: «أما مهارته وخبرته ﷺ، فقد تجلَّتا في تنظيم صفوف الجيش، وتخَيُّر الصالحين للقتال والمبارزة، واستبعاد مَنْ سواهم، ووضع الدريئة التي تحمي ظهور المسلمين، وتوجيه أوامره إليهم بأن لا يروموا أماكنهم، مهما كانت البواعث.

ولا شك أن هذا كلَّه من أمر الوحي، ومن أمر الله الذي اصطفاه واصطنعه، وعلَّمه وحلَّاه بما أهَّله للرسالة، وقيادة الأمة، وإرساء قواعد الملَّة.

وأما رباطة جأشه في المعارك، فقد تجلَّت عندما انقلب وجه المعركة، وفوجئ المسلمون بالمشركين تهوي سيوفهم ونبالهم فوق الهام، وهم مشغولون بجمع الحطام، فطاشت الأحلام، وزاغت الأبصار، ووقعوا بين شِقَّي الرَّحَى، فتفرق أمرهم، وتبعثر شملهم: فاتجهت فئة إلى المدينة، ولاذت أخرى بالجبل، وأقعدت الحيرةُ ثالثةً فما تدري ما تفعل...

(١) هنا انطلق النبي ﷺ يلُمُّ شمل المسلمين، ويصيح فيهم: **إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله!** محاولًا إعادة تنظيم المسلمين، فتجمَّعت حوله حفنة لا تزيد على الثلاثين، دافعت دفاعَ المستميتين، وصدَّت هجماتِ المشركين نحوه، وكسرت وقع نبالهم، وهي تتهاوى صوبَه.

(٢) رغم الجراح التي أصابته ﷺ والشدائد العظيمة التي قاساها، فقد تصدى لها بثبات لا مثيل له، لم تلن له قناة، ولم تضعف قوته، وغالَب الوقائع المُرة، وقاوم الأحداث التي ما مرَّ به مثلها.

(٣) ها هو ذا يواجه أُبي بن خلف الجَمَحِيَّ، أقبل نحوه، شاهرًا سيفه، يُقسم أن يقتله، فقد سنحت له الفرصة، فقال النبي ﷺ: بل أنا أقتله ـ إن شاء الله ـ، وتناول من فوره حربة الحارث بن الصمَّة ﷺ، فطعنه بها طعنة نَجلاء، فوقع على الأرض، يخور خوار الثور، فلم يلبث أن مات بعد قليل، وقال قبل أن يلفظ أنفاسه، يعترف لمحمد ﷺ بالصدق والقوة، أليس قال: لأقتلنَّك! فلو كانت تتجمَّع له ربيعة ومُضَر لقتلهم.

(٤) بل إنه ﷺ بعد أن جمع أصحابه، أمرهم بأن ينزلوا قريشًا من القمة التي احتلُّوها في الجبل، ورشقوهم منها بالنبال، وقال لهم ـ في عزَّة السيد الكريم غير آبه بهذا النصر الذي استرقته قريش في غلطة بعض الرُّماة، وفي غفلة من الرقب: «**ليس لهم أن يعلونا**»، فما زال المسلمون يحصبونهم بالحجارة، حتى أجلوهم عنها، واستردُّوها.

(٥) وليس ذلك فحسب، فقد بلغ من خبرة النبي ﷺ في شؤون المعارك: أنه أرسل عليًّا ﷺ في آثار المشركين، وقال له: «**اخْرُجْ فِي آثَارِ القَوْمِ فانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ وَمَاذَا يُرِيدُونَ، فَإِنْ هُمْ جَنَّبُوا الخَيْلَ وامْتَطَوُا الإِبِلَ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ، وَإِنْ رَكِبُوا الخَيْلَ وسَاقُوا الإِبِلَ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ المَدِينَةَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ أَرادُوهَا، لأَسِيرَنَّ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ لأُنَاجِزَنَّهُم فِيهَا**».

وهذا كلام يحمل في طيَّاته الخبرة والحنكة، كما يحمل الكثير من معاني التصميم والمضيِّ في القتال، كما يشير إلى أن الرسول ﷺ كان يتمتع بقوة لا تني، وعزم لا ينثني، وجرأة نادرة على مصاولة الأبطال، وعمالقة الرجال، دون أن تجد شدائد الخطوب والأحداث، سبيلًا إلى إضعاف نفسه، أو تفتير هِمَّته واتِّقَاده في الحروب.

وسنرى، عما قليل كيف تَعقَّب ـ مع ذلك ـ قريشًا، يطاردها، ويقطع طمعها في الاعتداء في غزوة حمراء الأسد». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٢١-١٢٣].

١٥ ـ ثبات القائد في ميدان القتال له أثر في كسب نتائج المعركة لصالح جيشه:

يقول د/ الرشيد: «اقتحام ميادين الحروب سبب في تعرض المرء لكثير من المصائب والآلام النفسية والبدنية؛ لذا فإن من الصفات التي ينبغي أن تتوافر لمن أراد الدخول في تلك الميادين: الثبات والصمود أمام ضربات السيوف وطعنات الرماح وتناثر الأشلاء والدماء.

ولـمَّا كان لثبات القائد في ميدان القتال أثر في نفوس جنوده، فإنه من المُلاحَظ أن الرسول ﷺ قد أعطى القدوة الحسنة لجنده يوم أُحد، حتى استطاع بثباته أن يخلص تسعة أعشار جيشه من هلاك محقَّق.

وقد ذكر القاضي عياض أن الثبات في ميادين الحروب، كان من صفاته ﷺ، فقال رحمه الله: «...حضر المواقف الصعبة وفرَّ الكماة والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أُحصِيَتْ له فَرَّةٌ وحفظت عنه جولة سواه ﷺ». [الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ١/ ٦٦].

كما ذكر المحدِّثون وأهل السِّير أمثلةً رائعةً من ثباته وصموده ﷺ في ذلك اليوم، وسوف أذكر في هذا المقام ثلاثة منها:

المثال الأول: عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: لـمَّا انْجَلَى النَّاسُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ نَظَرْتُ فِي القَتْلَى فَلَمْ أَرَ رَسُولَ الله ﷺ فَقُلْتُ: **وَالله مَا كَانَ لِيَفِرَّ، وَلا أَرَاهُ فِي القَتْلَى، وَلَكِنْ أَرَى اللهَ غَضِبَ عَلَيْنَا بِمَا صَنَعْنَا، فَرَفَعَ نَبِيَّهُ ﷺ، فَمَا لِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ أُقَاتِلَ حَتَّى أُقْتَلَ**، فَكَسَرْتُ جَفْنَ سَيْفِي، ثُمَّ حَمَلْتُ عَلَى القَوْمِ، فَأَفْرَجُوا لِي، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ الله ﷺ بَيْنَهُمْ. [**مجمع الزوائد ٦/ ١٦٠ كتاب المغازي والسير (١٠٠٧٥)، وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى، وفيه محمد بن مروان العقيلي، وثَّقه أبو داود وابن حبان، وضعفه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح**].

المثال الثاني: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ، وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلـمَّا رَهِقُوهُ قَالَ: «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ**»، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا فَقَالَ: «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الجَنَّةُ، أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ**»، فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَل كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: «**مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا**». [**مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٩)**].

المثال الثالث: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رضي الله عنهما قَالَ: لـمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَوَلَّى النَّاسُ، كَانَ رَسُولُ الله ﷺ فِي نَاحِيَةٍ فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، وَفِيهِمْ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله، فَأَدْرَكَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَالتَفَتَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ: «**مَنْ لِلقَوْمِ؟**»، فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كَمَا أَنْتَ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا يَا رَسُولَ الله! فَقَالَ: «**أَنْتَ**»، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ التَفَتَ فَإِذَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ: «**مَنْ لِلقَوْمِ؟**» فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا، قَالَ: «**كَمَا أَنْتَ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ: أَنَا، فَقَالَ: «**أَنْتَ**»، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ لَمْ يَزَل يَقُولُ ذَلِكَ وَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَيُقَاتِلُ قِتَالَ مَنْ قَبْلَهُ حَتَّى يُقْتَلَ، حَتَّى بَقِيَ رَسُولُ الله ﷺ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ لِلقَوْمِ؟**» فَقَالَ طَلْحَةُ: أَنَا، فَقَاتَلَ طَلْحَةُ قِتَالَ الأَحَدَ عَشَرَ حَتَّى ضُرِبَتْ يَدُهُ فَقُطِعَتْ أَصَابِعُهُ، فَقَالَ: **حَسِّ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ قُلتَ بِسْمِ الله لَرَفَعَتْكَ الْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ**»، ثُمَّ رَدَّ اللهُ الْمُشْرِكِينَ». [**النسائي في الجهاد (٣١٤٩)، وقال الشيخ الألباني: حسن من قوله: (فقطعت أصابعه) وما قبله يحتمل التحسين، وهو على شرط مسلم**].

فهذه الأحاديث مجتمعةً دلَّت على ثبات النبي ﷺ يوم أُحد». [**القيادة العسكرية للرشيد ٤٤١-٤٤٣**].

ويقول د/ أبو فارس: «وحين فوجئ المسلمون في غزوة أحد بهجمات سلاح فرسان المشركين الذين يقودهم خالد بن الوليد، فر عدد كبير منهم وأقبل أُبي بن خلف بفرسه التي رباها ـ وكان يقول لرسول الله ﷺ: **لأقتلنك عليها يا محمد**، فيقول رسول الله ﷺ: **بل أنا قاتلك إن شاء الله** ـ حتى إذا دنا من

رسول الله ﷺ اعترض ناس من المسلمين ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: استأخروا عنه، وقام وحربته في يده، فرماه بها، فوقعت في عنقه، فوقع عن فرسه، وكُسر ضلع من أضلاعه، فاحتملوه فمات لما ولوا قافلين». [إمتاع الأسماع للمقريزي ١/ ١٣٩، وينظر: غزوة أحد ـ د/ أبو فارس ص٨٢].

أما ثباته في القتال في أحلك ساعات النزال فتحدثك كتب السيرة عن هذا الثبات في أكثر من موطن، ففي غزوة أحد حينما انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا عدد قليل جدًّا، لقد امتشق رسول الله ﷺ حسامه، يضرب به وجوه المشركين حتى روَّاه من دمائهم، ولقد رمى بقوسه حتى تكسر، وانقطع وتره، وقذف بالحربة، وقَتَلَ أبي بن خلف.

لقد أُصيب في غزوة أحد إصابات كثيرة وبليغة، ولكنه لم يتراجع قيد أنملة، وقد تراجع كثير من الأبطال وولوا هاربين من حوله، لقد روى الإمام مسلم عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى الله**»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[آل عمران: ١٢٨].

[مسلم في الجهاد والسير (١٧٩١)، والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٠٢)، وأحمد (١١٥٤٥)].

هذا وأصيبت ركبتا النبي ﷺ بجروح، لما وقع في حفرة من الحفر التي حفرها المشركون، وسال دمه الزكي من شجة في جبهته حتى أخضل الدم لحيته ﷺ، كما جُرحت شفة رسول الله ﷺ السفلى، وكُسر أنفه، ولقد أنهك جسم رسول الله ﷺ من شدة ما ألم به، حيث لم يستطع أن يصلى ﷺ واقفًا، فصلى جالسًا بالمسلمين، ولم يستطع أن ينهض فجلس طلحة بن عبيد الله ﷺ تحته ثم نهض.

لقد حدث كل هذا لرسول الله ﷺ وظل ثابتًا، وكان لثباته أثر في تلافي ضربة ساحقة لقواته.

إن ثبات النبي ﷺ في مكانه في أرض المعركة ـ وهو مكان القيادة ـ كان له أثر كبير في نجاح عملية التجمع، وإنقاذ ما يقارب من ٩٠٪ من قوات المسلمين، ولو تَرك مقر قيادته، لما تمكن الجيش الإسلامي من التجمع بعد حركة خالد بن الوليد المفاجئة». [الرسول العربي ﷺ ص١٧٢].

[المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٣١-٣٣].

١٦ ـ وضوح الغاية:

يقول د/ أبو فارس: «إن جميع الذين شاركوا في غزوة أُحُد من الصحابة قد قاتلوا قتال الأبطال، وجرح معظمهم جروحًا بليغة، واستشهد سبعون من أبطالهم.

إنهم قادة وجندًا يقاتلون من أجل رسالة سامية، وغاية نبيلة، فضحُّوا من أجل غايتهم ورسالتهم بأموالهم وأنفسهم وراحتهم، وهذه الرسالة تتخلص في توحيد الله تبارك وتعالى وعبادته، وتحرير البشر من العبودية لغير الله.

غايتهم رضوان الله ﷻ، بإسعاد البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور، وإحيائها بعد موات، فالمسلم من يحمل رسالة حية، تحيي القلوب والنفوس بنور الإسلام، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[الأنعام: ١٢٢].

وفي المقابل كان المشركون يدافعون عن رسالة الشرك، وعبادة الأوثان، وكان الزعماء يقاومون رسالة الإسلام؛ لأنها تدعو لتحرير الناس من الظلم والعسف الذي لحقهم من سادتهم وكبرائهم.

والمسلمون اليوم ومنهم العرب خاضوا حروبًا مع أعدائهم، وكانت هذه الحروب تسفر عن هزائم مخزية وذل في رقاب العباد، واحتلال بغيض للأوطان والمقدسات.

أليس من حقنا أن نتساءل لم كانت هذه الهزائم؟

أليس من حق كل رجل مخلص لزمنه ودينه ووطنه أن يتساءل: ما الرسالة التي نقاتل من أجلها؟ وما الغاية المنشودة في قتالنا وحروبنا مع أعدائنا؟

وإذا كان لنا غاية منشودة وأهداف محدودة، فما هذه الغاية المنشودة، وما هذه الأهداف المرسومة؟

وإذا كان لنا غاية ورسالة وأهداف فهل ربينا الجنود عليها وأرضعناهم لبانها؟

ولو سلمنا جدلًا أن للذين قاتلوا وجنوا الهزائم المتلاحقة رسالة وغاية، فهل كانت هذه الغاية إنسانية، وهل كانت هذه الرسالة رفيعة، تدفع الجندي لأن يضحي من أجلها ويبذل دمه الزكي في سبيلها؟

هل بقاء حزب من الأحزاب في دفة الحكم غاية تستحق من الجندي أن يقاتل من أجلها؟

هل بقاء نظام من أنظمة الحكم الفاشية المستبدة أو زعيم قد تسلط على رقاب الناس وسامهم العذاب، فداس شرفهم وكتم أنفاسهم، رسالة تستحق من الجندي أن يقاتل من أجلها؟

هل رُبي الجنود على العزة والكرامة وأبوة النفس وعلى الحياة الحرة الكريمة؟

هل رُبي الإنسان العربي على حب الموت وكراهية الحياة الذليلة والتمرد عليها أيًّا كانت ومن أي جهة جاءت، أم رُبي على التعلق بالدنيا والقصور الفارهة والسيارات الأنيقة الثمينة؟

هل رُبيت الشعوب على الجهاد ودربت على حمل السلاح وجندت لميادين القتال كما رَبى رسول الله ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم؟

إننا نقول بكل صراحة ووضوح إن هذه الأمة قد جنت ما جنته من الهزائم بسبب بُعدها عن دينها، وأنه لا خلاص لها من هذا الواقع الآسن المختل إلا بالعودة إلى كتاب الله، وسنة نبيها، وأن تُربى التربية العسكرية وفق المدرسة النبوية العسكرية». [المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ١٢٥-١٢٦].

١٧ ـ التوكل على الله في ميدان المعركة:

يقول د/ الرشيد: «جرت سُنَّةُ الله في الحياة أن تربط الأسباب بمُسَبِّبَاتها، فإذا تخلف السبب لم يوجد مقتضاه.

وحقيقة التوكل هي: بذل ما يمكن من الأسباب المادية، ثم تفويض الأمر إلى الله في جلب المنافع ودفع المضار.

أما التوكل بدون القيام بالأسباب المادية فهو من باب العجز، ولا ينبغي للمؤمن أن يجعلَ توكَّلَه عجزًا ولا عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتمُّ مقصودُه إلا بها كلِّها.

لذا فإنه يُلاحظ أن النبي ﷺ ـ وهو أعظم المتوكلين على الله ـ قد أعطى القدوة الحسنة في هذا الشأن ليقتدي من بعده من المؤمنين.

ففي غزوة أُحُدٍ وبعد أن علم ﷺ بقدوم قريش إلى المدينة، أمر جنده بأن يأخذوا أسلحتهم وباتوا يحرسون المدينة، وحين جاء الحباب بن المنذر ﷺ، وأخبره بعدة قريش قال ﷺ: «**لا تَذْكُرْ مِنْ شَأْنِهِمْ حَرْفًا، حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**». [المغازي للواقدي ١/ ٢٠٨].

وعندما خرج ﷺ إلى حمراء الأسد، مَرَّ به ركبٌ من عبد القيس، فأخبروه بما عزم عليه أبو سفيان ومن معه من اسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمْ، فقال رسول الله ﷺ: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**». [تاريخ الطبري ٢/ ٥٣٦].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران]. [البخاري في التفسير (٤٥٦٣، ٤٥٦٤)، فتح الباري ٨/ ٢٢٩].

وقد بيَّن الله عاقبة هؤلاء بقوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران]». [القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ للرشيد ٤٧٢-٤٧٣].

١٨ ـ حماية القائد من متطلبات النصر في المعركة:

وقد سبق تفصيله في الدروس العسكرية من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

١٩ ـ إخفاء مكان وشخصية القائد العام في الميدان:

يقول أ/ خلف الله: «وكان خبر قتل رسول الله ﷺ قد سرى في الميدان، وعَلِم المشركون فضعف حماسهم للقتال، واعتبروا ذلك أروع انتقام من المسلمين، وأخذت تخف حدة المعركة شيئًا فشيئًا، وبدأ المشركون ينشغلون بأنفسهم وإحصاء قتلاهم وجرحاهم.

وهنا يتبين لنا سر إشارة رسول الله ﷺ إلى كعب بن مالك ﷺ بالصمت حين أراد أن يعلن عن رسول الله ﷺ، فالإعلان معناه تجدد المعركة والمسلمون في حالة يستحسن معه إنهاء القتال حتى يتيسر

لهم لمَّ جماعتهم وتوحيد صفوفهم، ولا يمكن أن يلتئم شملهم إلا إذا تأكدوا من حياة رسول الله ﷺ ولا يمكن تعريفهم بذلك، إذ من المستحيل إيصال الخبر إلى جميع المسلمين في الميدان، وقد انفسح واتسع، كما أن فريقًا قد انهزم إلى قرب المدينة، فالإعلان إذن في هذه الحالة لا جدوى وراءه وهو يضر بالمسلمين؛ لأن الفريق الذي سيجتمع منهم سيكون قليلًا ولا يمكنه المقاومة وحده.

ومن ناحية أخرى لا يجوز الإعلان عن شخصية القائد العام في الميدان؛ لأنه مقصود دائمًا بالقتل، هذا وإن كان المشركون لا يقدرون [(١)] على رسول الله ﷺ لشدة بأسه وشجاعته وعظيم هيبته ـ وقد رأيناهم ينفردون به ﷺ خلال المعركة وكلهم حريص على قتله فلم يتمكنوا من ذلك، إلا أن قواعد القتال وأصوله تجب مراعاتها وهي تقضي بعدم إعلام العدو بمقر القائد العام، ويتأكد ذلك في مثل هذه الظروف؛ ولذا أشار ﷺ إلى كعب ﷺ بالإنصات». [غزوة أُحد لخلف الله ٩٠-٩١].

٢٠ ـ علاقة القائد بجنوده [(٢)]:

يقول د/ أبو فارس: «في غزوة أُحد ترى هذا الحب الذي يبعث على الفداء بالنفس والمال من أبي دجانة وطلحة بن عبيد الله ﷺ، بعدما انكشف المسلمون عن رسول الله ﷺ.

ولقد أحب رسولَ الله ﷺ النساءُ والرجالُ، وكان مما يخفف المصاب على المرأة المسلمة التي استشهد أبوها وأخوها أو عزيزٌ عليها أن رسول الله ﷺ خرج من المعركة سليمًا معافى.

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ جميعًا يحبونه ويؤثرونه على أنفسهم، فما ساروا في غزوة إلا قاتلوا دونه والتفوا حوله، وما وجدوا أمرًا يسر رسول الله ﷺ ويهيئ له الراحة إلا فعلوه، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حبهم إياه وإيثاره على أنفسهم». [المدرسة النبوية العسكرية لأبي فارس ٤٤-٤٦].

٢١ ـ لماذا لم يجرؤ أبو سفيان على التحرك نحو المدينة الخالية للاستيلاء عليها؟:

يقول الجنرال أ.أكرم: «ينبغي أن نلاحظ أن النبي ﷺ في اختياره ميدان المعركة قد ترك المدينة مفتوحة لهجوم القرشيين، وكانت المدينة قاعدة المسلمين، لكن الطريق المؤدي إلى تلك القاعدة ـ

---

(١) قال الفخر الرازي في تفسيره عند تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] كيف يجمع بين ذلك وبين ما روي أنه ﷺ شج وجهه يوم أُحد وكُسرت رباعيته؟ والجواب من وجهين: أحدهما أن المراد يعصمه من القتل، وفيه التنبيه على أنه يجب عليه أن يحتمل كل ما دون النفس من أنواع البلاء، فما أشد تكليف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وثانيهما أنها نزلت بعد يوم أُحد، واعلم أن المراد من الناس هنا الكفار بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة] ا.هـ. ج ٣ ص٤٤٣.

(٢) سبق تفصيله في الدروس العسكرية المستفادة من المرحلة الأولى من غزوة بدر الكبرى.

والذي يمر جنوب موقع المسلمين ـ كان مفتوحاً لأبي سفيان، فلو أن أبا سفيان قرر التحرك إلى المدينة، فإن المسلمين لن يكونوا في طريق تقدُّمه، في هذا القرار توقع النبي ﷺ بشكل صحيح بأن أبا سفيان لن يجرؤ على التحرك نحو المدينة؛ لأنه لو فعل ذلك لعَرَّض مجنبته ومؤخرته للهجوم من قِبل المسلمين، وهذا ما حصل تمامًا، فأبو سفيان لم يتحرك إلى المدينة خوفاً من المسلمين الذين كانوا يقفون على جانب الطريق، وكان هذا مثالًا نموذجيًّا، تكرر عدة مرات في التاريخ العسكري، لقوةٍ تدافع عن قاعدتها، ليس بالتمركز فيها وخوض معركة جبهية، بل بتهديد أي تحرك معادٍ نحو تلك القاعدة من الجنب».

[سيف الله خالد بن الوليد ﷺ لأكرم ص ٦٧].